أمـل وألـم

(شمس)

أمـــــل و ألـــــم

(شـمـــس)

روايـــة

أسماء سعد

اسم الكاتب: أسماء سعد
اسم الكتاب: أمل وألم (شمس)
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: وجيه أبو عادي
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى –أكتوبر ٢٠١٩ م
رقم الإيداع:2019 /

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
ت/ ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

إهداء إلى ...

عائلتي الكبيرة فرداً فرداً.

شاتFriends for ever.

صديقتي التي قالت لي يوماً "اكتبي يا أسماء أحب أن أقرأ لكِ".

شكراً هدى هارون

صديقتي التي تسألني دوماً عن الجديد لتكون أول من يقرؤه.

شكراً سامية عزيز

مستشارتي النحوية الأستاذة سمر عبد الكريم.

و إهداء واجب إلى :

كل النفوس المُتعبة الباحثة عن الطريق.

كل من وثق بي و دفعني إلى الأمام.

دُمت بكم و لكم

أسماء سعد

المقدمة

انتقلت كثيراً بين العناوين قبل أن يهتدي عقلي لهذا العنوان.. و أنا على يقين أنكم بعد قراءة هذه الرواية ستتفقون معي على هذا الاختيار.

أملٌ و ألمْ.. كلمتان تحويان ذات الأحرف لكن بترتيبٍ متباين تبايناً أدَّى لتباعد المعنى حتى كاد يوصِلهما حد التضاد.. الأمل بكل ما يحمله من معانٍ محببة للنفس.. معانٍ تدعو للتفاؤل، التحفيز، الصراع لإثبات الذات، و أن هناك ما نحيا لأجله.. اقترن مع الألم الذي بمجرد ذِكره تراودنا الأفكار البائسة و المشاعر الممزقة.. كلمة تصف مشاكلنا، جراحنا، وعذاباتنا بهذه الحياة.. إذن ما الرابط بينهما بتباينهما الواضح هذا؟

ما يربط الاثنان هو تكاملهما برحلة تُدعى الحياة.. تلك الرحلة التي علينا خوضها منذ صرخة الميلاد الأولى بالمهد حتى حشرجة الروح الأخيرة على فراش الموت.. تلك الرحلة هي ما آلفت بينهما حتى أصبحا قرينين لا يفترقان أبداً.. الأمل يتبعه الألم و العكس.. نحن نأمل بالراحة و التفوق، بالحب و السعادة، بحياة تصل بخيالاتنا حدّ الكمال.. فنواجه صعوبات في سبيل تحقيق مرادنا..

تلك الصعوبات تُرهِقُناتستنفذ طاقاتنا و تؤذي أنفسنا المُتعبة فنشعر بالألم.. و لكن الحياة لا تتوقف عند ذلك الحد ولن تفعل يوماً.. وستجد نفسك بعد ذلك تُعافر لتحقيق ذلك الأمل السابق أو تسعى للبحث عن جديد.. فقط لتثبت لذاتك قبل الآخرين أنك لازلت تتنفس و أنك مازلت على قيد الحياة.. الحياة لم و لن تخلو يوماً من أي منهما مقترنين.

أترك بين أيديكم وليدتي الورقية الأولى 'أملٌ و ألمٌ'.. أتمنى أن تنال إعجابكم.

أسماء سعد إبراهيم

٢٠١٩/٧/٣

"عندما يسقط العقل في غياهب الظلمات
يوأد القلب و تتخبط الروح في الضلال
و يفقد الجسد السيطرة على نفسه فيضحى
مجرد دُمية مُعلقة تُباع لمن يدفع أكثر.."

الفصل الأول

المكان: أحد شوارع محافظة القاهرة

الزمان: لا أعلم، كل ما أعرفه أن النهار كان قيْظاً وكأننا بفترة الظهيرة في أشد أيام الصيف حرارة.

سرت هائماً بعدما أغلقت الحياة بابها بوجهي فاقداً توجهي الزمان والمكان، وحتى العقل الذي ميزنا الله به عن بقيةِ خلقه. سرت أتخبَّط في البشر من حولي علّي أقتبس القليل من حيواتهم السعيدة و أنفسهم الراضية. "إلى أين أذهب؟ و ماذا سأعمل؟" سؤالان ترددا بعقلي و عجزت عن إيجاد إجابة لهما. و لَمَّا أنهكني المسير جلست على أحد الأرصفة ألتقط أنفاسي وأنظر حولي علِّي أُميز ملمحاً يعرفني بالمكان الذي أُلْتُ إليه. و بينما أتطلعُ بجهلٍ حولي إذا بي أسمعُ صوت أذانٍ يصدح. دارت مقلتاي التائهتان ورهفت أذناي يعاونهما ببحثهما اليائس قلبٌ مثقل.. قلبٌ لطالما تغافل ولقلما انتبه. بحثتُ بقلبٍ اشتاق للعودة رُغم كل شيء.

و رأيته.. كان المسجد على مرمى بصري بعيدٌ قليلاً لكني مازلت قادراً على رؤية بنائه المهيب بمئذنتيه الممتدتين لعنان السماء والمتوافدين لبابه.

وقفت يتساءل قلبي الوَجِل: يا الله هل إذا أتيتُك ستقبلُني أم ستطردني من رحمتك كما فعل الآخرون معي؟. يا الله هل تقبلُ بعبدٍ أنفق حياته في عصيانك؟! سِرتُ أجُرّ قدميّ خطوة وراء أخرى حتى اقتربت من بابه، عندها توقفت، يحثني قلبي على الدخول والبكاء بين يدي الله على ما اقترفت بحقه و حق نفسي قبل الجميع .. وتمنعني قدماي من المُضيّ أبعد من هذا متعللتين بأن ما ارتكبت ليس بهيِّن لينتهي أمره بهذه البساطة!

وبدأ الوافدون يتطلعون بفضولٍ مُتسائل لذلك الشاخص الماثل أمامهم.. حينها تصاعد صوتٌ ثالث. ربما كان ذلك بقايا ضميري الموءود يكافح للخروج و هو يسألني بعَتْب: أما آن لك أن تتوب؟ وما يدريك لعل الله يقبلُ بك، لعله يغفرُ لك ما مضى، أليس الله توَّاباً رحيماً؟

واستمعتُ للصوت الأخير فاستأنفت قدماي التحرك حتى وجدتني بعد بضع خطوات داخل المسجد ملتصقاً بعُقبِ بابه.. أحسست بقشعريرة تسري بكل خلية في جسدي، وبقبضة تعتصر روحي، ولم أدرك سبباً لما يحدث لي. فقط كنت أشعر أن هذا البناء المهيب يدعوني للدخول، ولكن نفسي المُثقلة لم تستطع تحمل دعوته فهمَّت للفرار، وهكذا تحولت قدماي للخروج. وقبل أن تطآ خارجه كانت هناك يدٌ توضع برفق فوق كتفي. وتسارعت أنفاسي، من تُراه يوقفني! أهي الشرطة مرة أخرى؟! ولكن...

وغلبَت سنوات ماضيَ المشين حاضري المبهم. التفتّ ببطء لتبيُن الأمر. فالتقت عيناي السوداوان المرتجفتان بعينين بنيتين واسعتين تتلألآن بابتسامة. هدأت ارتجافتي و تطلعت بفضول لصاحبهما، بدا شيخاً بمنتصف الخمسينات من العمر بشعر أسود ناعم تخلله الكثير من الشعرات البيضاء، و امتلأت قسمات وجهه التي بدت وكأنها نالت حظ وافر من الوسامة فترة الصبا وقاراً وطمأنينة. كان يرتدي جلباباً ناصع بياضه تفوح رائحة المسك منه. وسألني:

- إلى أين يا بني؟ ألن تُصلِّي؟

نظرت داخل مُقلتيه اللتين شعتا عطفاً و ابتسامته التي ملأتني أماناً وصرخ داخلي: كلا.. لن أفعل فقلبي الآثم لن يستطيع التحمل. كلا سأهرب.. لكن ذلك لم يتعدّ حد عقلي.. و عندما تحرك لساني خانني قائلاً:

- بلى سأفعل!

ماذا؟! كيف تفوهت بهذا؟ و لماذا! ألم أكُن أسعى للفرار! ولم أصل لإجابة بهذا الشأن حتى هذه اللحظة . كل ما أدركه أني أردت التشبث بالبقاء. أردت التمسك بذلك الشعور بالراحة و الطمأنينة اللتين انتزعتا مني منذ زمان غابر فهل عساي أضحِّي بهما بهذه السهولة! وكأن الرجل كان يعلم إجابتي مسبقاً، حيث أسرع يجذبني من يدي قائلاً:

- إذن هيا توضأ لِتلحقَ بالصلاة.

و استمر بجذب ذراعي حتى وجدتني أمام خلاء و هو يستأنف:

- سأنتظرك بالمسجد حتى تنتهي.. ثم تركني و ذهب.

دخلتُ و أغلقتُ الباب خلفي، استندت بكفاي على الحوض أتطلع لوجهي بالمرآة المعلقة: مَنْ هذا الشخص؟! لوهلة لم أتعرف على نفسي. كنت أتذكرني فتى يسابق الأيام ليلج السادسة عشر بعدها كرهت النظر بأي مرآة قد تصادفني. وها أنا أعيد النظر فأرى رجلاً لو استطاع لأوقف الزمن حتى لا يفارق أواخر الثلاثين. مراهق جلس مبتسماً بأملٍ في الحياة أمام آلة التصوير فخرجت له صورة رجل يقترب بعجل من الأربعين. وما بين التقاط الصورة وخروجها سنوات مضت في غياهب الألم والعذاب والسجن!

وترددت كلمات الرجل بعقلي "توضأ لتلحق بالصلاة". ابتسمت بسخرية و أنا أسترجع على عقلي أركانه. "الوضوء" ذلك الفعل الذي أتقنته بسنوات عمري الأولى و بداية مراهقتي لأتحول عنه فيما بعد لأقبح الأفعال وأشنعها مُلقياً بروحي قبل جسدي بعالم المخدِرات والجرائم. فتحت صنبور المياه وسميت الله و مع كل قطرة تساقطت أمامي تبعتها مثيلتها وأكثر من مقلتاي. شعرت بقلبي يتمزق و روحي تختنق داخل جسدي و أنا

أتمسك بالحوض بكل ما تبقَّي فيَّ من قوة حتى لا أسقط أرضاً: يا إلهي ما هذا العذاب الذي يفتك بي؟. انهمرت عبراتي مع كل صورة مرَّت أمام عيناي منذ أن التَزَمت جانب الشيطان. انهمرت على عمري الضائع، على كل إنسان خدعته أو سرقته أو نصبت عليه، على من قدتهم بيداي ليلاقوا ذات المصير المشئوم. على تبرُّأْ عائلتي مني و على سنوات سجني. على حياتي التي رغم كل ذلك لا زالت تتشبث بي! تناسيت الله و أهلي ثم نفسي حتى تغلغلت الذنوب بداخلي كالمرض الخبيث يحتل الجسد حتى يقضي عليه. بِتُّ لا أشعر بنفسي فضلاً عما يدور حولي و أنا أنغمس يوماً تلو آخر بمستنقعات الرذيلة. و لَمَّا استفاقت نفسي اليوم و أرادت أن تبرأ ما بال قلبي ينتفض وهو الذي خطَّ شهادة وفاته منذ أعوام كثيرة؟! و ما بال مقلتاي تكادان تدميان و ما بال ساقاي وهنتا فلم تعودا تقويان على الوقوف!

لم أتوضأ. لم تستطع روحي و لم يتحملني جسدي. فتحت الباب واستندت عليه أنظر خارجه علّي أجد ما ألقي بجسدي عليه. ووجدت مِقعداً في المنطقة الفاصلة بين المسجد و الخلاء فأسرعت ألقي بثقلي عليه. ويبدو أن جلوسي قد طال حيث وجدت ذات اليد الرفيقة توضع مرة أخرى على كتفي و صاحبها يسألني بقلق:

- ماذا بك بني؟

وكأنها الإشارة. و كأنه بسؤاله ذاك منح روحي الإذن الذي انتظرته لسنوات فانفجرت باكياً يرتعد جسدي رُغم حرارة الجو. أوقفني الشيخ واضعاً يده تحت مرفقي و اتَّجه بي لساحة الصلاة. سرت مُسلِّماً نفسي المنهكة له فذهب بي لأحد الأركان البعيدة نسبياً عن المصلين المعدودين و أجلسني هناك قائلاً:

- انتظرني هنا.

ولم يدُر بخلدي غير ذلك. تابعته ببصري حتى رأيته يؤم الصلاة صائحاً بصوت جهير: الله أكبر.

وبقيت حيث أنا تنحدر دموعي بصمت حتى سمعته يسألني بعد أن استقر بجانبي:

- والآن أخبرني ماذا بك فلربما استطعت مساعدتك.

تطلعت إلى وجهه البشوش فانقبض صدري و صرخ داخلي: كيف أخبرك و أنت اليد الوحيدة التي امتدّت لتربت عليّ. أخشى إخبارك فتهرب أنت الآخر بلا عودة. أخبرك! أخبرك بماذا أيها الشيخ؟ هل أخبرك أني ولدت لعائلة كان أقصى طموحها أن تُنشيء جيلاً صالحاً ناجحاً يكون قادراً على مجابهة مغريات الحياة؟ أم أخبرك أني دمرت ذلك الحُلم و أنا لم أكد أبلغ السادسة عشر! كنت فقط أخطو على أعتاب المرحلة الثانوية مُفعماً بالأمل

والطموح عندما انقدت لأصدقاء حسبتهم ملائكة لأكتشف بنهاية الأمر أنهم مردة يتخفّون تحت أقنعة البشر! شياطين التفوا بخبثٍ حولي و بدأوا بتلقيني كل ما هو فاسد. في البداية حاولت الابتعاد فما يطالبونني به لا يتماشى مع ما نشأت عليه و لا مع آمالي العظيمة، لكنهم كانوا أقوى عزماً وأطول صبراً، لم يدعوني و شأني حتى استسلمت لهم فبدأت حياتي تلك بسيجارة تدافعوا على إعطائها لي و كأنهم يمنحونني النعيم الأزلي مُنددين بأني لن يكتب على جبيني رجل إلا إذا نفثت دخانها. فالرجال فقط هم من يستطيعون! و أطعتهم مُنقاداً بحماس المنافسة و ظانّاً أنها فقط مجرد سيجارة فلِما لا أجرب حتى أثبت لهم أنهم مخطئون و أني بالفعل رجل قادر! و هكذا فعلت. شعرت يومها بدخان يغلف عقلي و قلبي، نفَرَت رئتاي فعلي لكني لم ألقِ لهما بالاً و يا ليتني فعلت! فتلك السيجارة لم تكُن أبداً بتلك البراءة التي أقسموا بها بل كانت مُعبأة بالمخدرات التي اكتشفت فيما بعد أنهم يتعاطونها و يدفعون الغِرار أمثالي لتقليدهم بإعطائهم فقط مجرد سيجارة بريئة كما فعلوا معي ضاغطين بقوة على مصطلح الرجولة المبكرة. فكلما زاد عدد المنضمين إليهم رضى عنهم مروجها فأثنى عليهم و منحهم جرعتهم مجاناً تكرُماً لإنجازهم منقطع النظير. بالطبع لم أدرك أي من ذلك إلا بعد أن ضاع كل شيء. و منذ تلك اللحظة أصبحت عبداً لكل يدٍ تُلقي إلي بتلك

السجائر. و بالطبع انضممت أنا الآخر لقافلة المروجين لفوائد السجائر لأنال جرعتي المجانية فما يعطيه أبي لي لن يجعلني أحصل عليها و لو بعد أيام.. و لكن لم يدُم السر طويلاً فقد لاحظ والداي ما أصبحت عليه فعاقبوني بحبسي بغرفتي و عزْلي عن العالم. و هم يندبون حظهم النَكِد في ابنهم الفاسق الذي أردى حلمهم و أهال عليه التراب. و لكني لم أستطع التحمل، أردت الهرب و العودة لحياتي الآثمة. كيف يطلبون مني السيطرة على نفس ذاقت الحرام فارتضت به وعقل أصبح دواؤه بيد أصدقائه؟!

وفي لحظة غفل فيها الجميع استطعت الهرب مهرولاً لدوائي. عدت لأصدقائي فاستقبلوني بحفلٍ كنت ضيف شرفه. فأنا الغائب الذي أنفقوا الأيام في انتظار عودته! و عندما أخبرتهم عن هروبي و أنه لم يعد لي مكان أذهب إليه أشفقوا عليّ فأخذوني لأول مرة لوكر زعيمهم، و قد كان رجلاً خمسينياً ذا ابتسامة صفراء تكشف عن أسنانٍ أشدُ صُفرة و لسانٍ يتقاطر منه أعذب الكلمات. أحببت حديثه فهو يتفهمني، هو ليس مثل أبي الذي يريد فقط السيطرة عليّ دون سؤالي عما أريد! و التفّ حولي كالثعبان المتلون.

ومن هنا بدأت مرحلة أخرى من حياتي ألا وهي "مرحلة حَقني بالهيروين". ومنذ ذلك اليوم أصبحتُ جسداً نفرت الروح منه.أصبحت أنفِّذ كل ما يأمرني به دون نقاش أو بادرة اعتراض فقط لأنال رضاه

فيعطيني جرعتي بموعدها ولا يؤخرها عقاباً لما جروءت على التفوه به. فعلت لأجله كل شيء: سرقت و نصبت و وزَّعت، و في النهاية قتلت. نعم قتلت! في لحظة صفا بها عقلي و نادراً ما كان يحدث أخبرته أني سأتوقف. أني اشتقت لحياتي القديمة. لرؤية وجه أبي و ابتسامة أمي. أخبرته أني سأغادر الوكر. و لم يكُن بالوكر ذلك الوقت إلا أنا و هو كوني أصبحت ذراعه الأيمن و خادمه الأمين و حتى ابنه البار الذي لم يستطع إنجابه بعد ما يقرب من سبع زيجات انتهت كلها بالطلاق بعدما منحته فقط الإناث. ذلك اليوم أخرج مسدسه و أشهره في وجهي مُهدداً بقتلي إذا حاولت فقط مجرد التفكير بالأمر. ثارت نفسي، أرادت التمسك بلحظة الصفاء تلك فأسرعْتُ إليه أريد انتزاع المسدس من يده و من ثم اللوذ بالفرار ، و لكنه ركلني بقوة في بطني فسقطت أرضاً أتألم، لكني لم أيأس. نهضت مجدداً و ابتدأ العِراك. وفجأة انطلق صوت المسدس. أحسست بالدماء الساخنة تسري على جسدي. نفضت جسده بعيداً فرأيت الرصاصة قد استقرت بصدره. رأيته جاحظ العينين ساكن الجسد فأيقنت أنه مات. أردت الهرب و الاختباء، ولكن نفسي المشتاقة للعودة لم تستمع إليّ. رغبت بتحمُّل عقوبة أوزارها والبدء من جديد فكنت بأقرب قسم شرطة أخبرهم بما حدث و أقودهم بنفسي لمكان الوكر. أخبرتهم بأسماء الذين كان يتعامل معهم ذلك الرجل

وأماكنهم وكل المعلومات التي أعرفها عنهم فتم القبض على الكثيرين. طلب مني الضابط مُشفقاً بعدما استمع لقصتي معلومات التواصل مع عائلتي فأخبرته يتنازع بداخلي الأمل والشوق لرؤيتهم مع الخوف من مواجهتهم، ولكن كان للأمل الكلمة الأخيرة. وأسرع والداي بالحضور ناظرين بشك إليّ مُكذبين أعينهم بأن ذاك الشبح الماثل أمامهما ينتظر عناقاً أو ربما صفعة فقط أن يتلمسه أحدهما هو ابنهما الذي لم يرياه منذ ست سنوات! وسبق حنان والدتي غضبها فأسرعت تحتضنني بعدما أقرَّت بداخلها هويتي فانحنيت ألثم كفيها باكياً. وفجأة توقفت الحياة بداخلي عندما أصدر أبي قراره:

– يا سيادة الضابط هذا ليس ابني.. ابني قد مات منذ ست سنواتٍ خلت..

ثم جذب أمي بقوة من ذراعها وغادر القسم غير آبه بأسئلة الضابط الموجهة إليه ولابذلك الذي تبرأ منه. غادرا بلا عودة! قضيت سنوات عقوبتي الخمسة عشر دون الحصول على زيارة واحدة من أي منهما أو من أخواي. قضيتها و كأن كل يوم بها هو آلاف السنوات قبل أن يحين موعد خروجي. وعندما خرجت بلا حول ولا قوة قررت الذهاب إليهم. فقد اعترفت بذنبي وتلقيت العقاب. وراودني أمل جديد بأن والدي سيعفو

عني ويغفر لي بعد كل تلك السنوات. وسرت يحدوني ذلك الأمل حتى كنت بمنطقة سكننا. وصلت فوجدت كل شيء قد تغير: المنازل والشوارع وحتى البشر، لم يعد شيء كما كان. صعدت السلم حتى وصلت شقتنا. ضغطت الجرس فخرجت امرأة نفت معرفتها التامة بأسرتي و أقرَّت بملكية الشقة منذ سنوات. عدت أدراجي إلى الشارع أسأل من تقع عليه عيناي عن عائلتي مانحاً اسم أبي كدليل. فعلمت أنهم قد غادروا المنطقة بعد الحكم على ابنهم بالسجن وانتشار صوره بالصحف وإيذاء الجيران لهم. لم يستطيعوا تحمل الأمر فغادروا المنطقة ولا أحد يعلم إلى أين ذهبوا. ولأن الأعوام تُغيِّر فلم يتعرف عليّ أحد ولم يعلموا أن ذاك الفتى الذي يسبّونه هو ذات الرجل الذي يقف منتصباً أمامهم. لم يتعرف عليّ إلا رجل سبعيني كان فيما مضى الصديق المقرب لأبي والذي لطالما عاملني بحب في السنوات الغابرة. أشفق عليّ فأخبرني عن مكانهم الذي انتقلوا إليه. شكرته وأسرعت للمكان الذي أخبرني عنه يدفعني الشوق لرؤيتهم. وصلت وصعدت الدرج، طرقت الباب المنشود وانتظرت، و طال انتظاري قبل أن أسمع خطوات وئيدة تتجه صوب الباب وصوت رجولي متقطع يسأل: من؟ ثم فُتح الباب وأطلَّ منه وجه مضت سنوات في اشتياقي لرؤيته.

تطلعت إليه فإذا به والدي قد أصبح كهلاً بالكاد يستطيع السير مستنداً بإحدى يديه على عصا غليظة وبالأخرى على الباب المفتوح. نظرت إليه بابتسامة لم تعرف طريقها لوجهي منذ ما يقرب من واحد وعشرون عاماً أو يزيد. واحد و عشرون عاماً هم حصيلة حياتي منذ هروبي من المنزل. بدا أنه لم يستطع التعرف عليّ ربما ضَعُفَ بصره جرّاء السن. أخبرته بحذر عن هويتي و انتظرت. وعادت بي الذاكرة لآخر مرة التقينا بها. يوم انتظرت اعترافه بي فأنكرني، لحظة اشتقت لعناقه فحرمني أمانه. ربما حان الوقت ليعفو ويضمني بين ذراعيه. ربما حان الوقت لأحيا من جديد. وعندما سَمِع اسمي كست قسمات وجهه المفاجأة. رفع بصره إليّ و طالت نظرته، بدا وكأن عيناه تسألاني: كيف كنت يا بُني طوال تلك السنوات؟. انفرجت أساريري وتصاعد الأمل بداخلي و هيأت جسدي للعناق المنتظر قبل أن يطرحني حديثه أرضاً وللمرة الثانية مثلما حدث منذ خمسة عشر عاماً قائلاً بذات النبرة الحازمة وكأن السنوات عادت لتلك اللحظة القاتلة، وكأن ما مضى بينهما ذهب أدراج الرياح:

- ليس لدي ابن بهذا الاسم.. لابد أنك أخطأت المنزل.

ثم تراجع خطوة للوراء ليستطيع غلق الباب.

- أبي.. أرجوك.

حاولت تذكيره بيأسٍ عني، حاولت استدرار عطفه بشأني. جاهدت للتشبث بفرصة قد تكون الأخيرة للحياة في ظل اليأس الذي يعصف بقلبي. ولكن لا لقد أصدر الأمر وانتهى الحديث، تماماً مثلما حدث في الماضي. وعندما أدركت أنه لا فائدة ستُرجى من التوسل، سألته عن والدتي، عمن اعترفت بي في الماضي، فلربما أعادت الكرَّة و لربما توسلته هي الأخرى فألانت قلبه تجاهي:

- أين أمي؟ أرجوك اسمح لي برؤيتها قبل طردي.. أتوسل إليك فقد اشتقت إليها.. أريد الارتماء داخل حضنها و لو لمرة بعدها أعدك سأرحل دون عودة.. فقط دعني أراها.

و رنَّت ضحكته الساخرة داخل أذني، تعجبت من رِدة فعله ليعاجلني بالطامة الكبرى:

- والدتك! تلك المرأة الحمقاء! لقد ظلت تبكي رحيلك كل يوم بعد هروبك. وعندما سُجنت لم يمض عليها العام إلا و قد وارى وجهها التراب مُلقية بنا جميعاً خلف ظهرها فقط لأجل من؟! لأجل ابن عاق لم يمنحنا إلا الألم. ليتها ما أنجبتك. أنت فقط سبَّة على جبيننا.

وتتابعت الصدمات فوق رأسي وازداد ثِقلُ جسدي فسقطت أرضاً ووالدي يكيل طعناته لي:

– أما أخواك فقد كانا ذكيين، أخبرا الجميع أن أخاهم الأكبر قد مات! فلم يعد لهما أخٌ يسمى محمداً و جعلا من يوم سجنك ذكرى لوفاتك و لم أمنعهما. فما رأياه بسببك لم يكُن هيّناً. ياه "محمد"! لقد دنست شرف هذا الاسم العظيم. لو كنت أعلم ما ستكون عليه لما أطلقته عليك آملاً أن يدعوني الناس "بأبي محمد" فينال بيتي بعضاً من بركته.

ثم صفق بابه بوجهي. جلست طويلاً على إحدى درجات السلم أنظر للباب الوحيد الذي اعتقدته سيؤويني ليغلق بقوة في وجهي. جلست أنفض الرماد عن ذكريات كانت يوماً الحياة ذاتها، وحاولت جاهداً التنقيب فيها لاستعادة صورة أمي التي بهتت بذاكرتي على مدار السنوات الماضية. تلك الصور التي شاركتني سنوات سجني الأولى آملاً أن صاحبتها ستأتي يوماً لرؤيتي. لم أكُن أعلم و أنا أكيل لها العتاب كل ليلة أنها بعيدة كل البعد عن زيارتي. أنها لم تعد تقطن بهذا العالم القاسي. لم تتحمل الحياة طيبتها فقررت مواراتها في التراب. ولكَم كانت سعادتي عندما استعدتُ القليل منها: ضحكتها، دعائها الذي كان يربت على قلبي، وحضنها الذي كنت ألتجيء إليه إذا اشتدت عليّ الحياة. ومر الوقت و أنا كالتمثال قابع بمكاني اللهم إلا من ضحكة قد تزور شفتاي عندما أتذكر طرفة أخبرتني بها قبلاً. ثم كان هناك صوت أقدام تصعد انتشلني من ذكرياتي. أقدام مرت بي ولم

تُعرني اهتماماً مُتجهة صوب باب أبي. كان صاحبها شاباً حسن المظهر يبدو بمنتصف العشرينات من العمر يرتدي حلة قيِّمة. وعندما أصبح أمام الباب التفت ينظر إليّ بطرف عينه مشمئزاً من هيئتي المزرية ثم سألني:

- من أنت؟ و لماذا تجلس هنا؟

ثم نظرة شاملة قيّمتني صعوداً وهبوطاً، ربما اعتقدني لصاً أو مُتشرداً ولديه كل الحق بذلك. وفكرت و أنا أتطلع إلى ذلك الشاب الذي بدا شبيهاً بأبي إلى حدٍ بعيد: من تُراه يأتي بهذه الهيئة لزيارة أبي و يحمل معه مفتاح المنزل أيضاً؟! من قد يحمل ملامحه إلى ذلك الحد البعيد؟! من قد يكون إلا ابنه!

ألجمتني الصدمة وأنا أسأل نفسي: أتُراه يكون يحيى! ذلك الطفل الذي كان بالكاد يبلغ الخمس سنوات عندما هربت من المنزل! هل مرَّت السنون إلى هذا الحد؟! حاولت التحامل على قدماي المتخدرتين من طول الجلوس، طمعت بالتشبث بأمل ظننته الأخير لي للبقاء.

- أرجوك أخبرني ما اسمك؟

سؤال ألقيته و أنا أحاول وضع يدي بضعف على ذراعه، لينفضها بقوة مُعيداً تفحصي بذات النظرة التي لم يخف اشمئزازها عني ثم سأل:

- لماذا؟ هل تعرفني؟!

توسلته بقلب يكاد ينفجر شوقاً للتأكد:

- أرجوك فقط أخبرني باسمك.

أجابني زافراً بنفاذ صبر: الدكتور يحيى عبد الحميد.

و اطمأن ذاك الهائج بين أضلعي، نظرت بفخر إليه مفكراً: ياه.. لقد كبرت كثيراً يا يحيى. لقد أصبحت شاباً رائعاً. حاولت السيطرة على انفعالات نفسي و لكن كان لذراعاي شأن آخر فاندفعا لعناقه متناسيين ما كان وما سيكون، ما أنا عليه وما هو عليه، متناسيين كل شيء، فقط أرادا الشعور بملمس أي من أفراد العائلة، و لكن للأسف كانا مخطئين بتناسيهما ذاك، فقد دفعني بعيداً قائلاً بنبرة ساخطة:

- ماذا تفعل؟ من أنت؟

و استمر ذاك الأمل السخيف يتصاعد بروحي فقلت على عجل:

- أنا محمد أخوك الأكبر.

عرَّفت عن نفسي وأنا يكاد يتفتق وجهي من سعة الابتسامة التي ارتسمت على كل ملمح به بعد سنوات طوال من الألم و البكاء. وضاعت الابتسامة شيئاً فشيئاً وأنا أنظر لتعبيرات وجهه المكفهرة، ضاعت وهو يُلقيها عليّ كسهم اخترق صدري:

- أنا لا أعلم من أنت.. و لكن أنا ليس لدى أخ يدعى محمد.. أعتقد أنك أخطأت العنوان.

ضاعت وهو يتجه لفتح الباب مُولياً ظهره إلي. وكأن المشهد سيُعاد مرة أخرى وينتهي الأمر بي وحيداً على درجات السُلم، أسرعت أتشبث بذراعه مُترجياً:

- أنت بالفعل قد لا تتذكر وجهي فقد كنت طفلاً وقت غادرت المنزل.. لكنك تعلم في قرارة نفسك أني لا أكذب.. بالتأكيد رأيت إحدى صوري، إن ملامحي لم تتغير كثيراًعما كُنته.. أنا محمد يا يحيى.

صرخ بي و هو ينفض ذراعه بقوة لابتعد عنه: ماذا تريد؟!

توسلته و أنا أعيد ذراعاي لجانبي:

- أريدك أن تمنحني فرصة جديدة للحياة.

- ماذا؟! أمنحك فرصة! و لماذا لم تمنحنِ أنت تلك الفرصة عندما انقلب الجميع علينا واتهمونا بالفساد بعد انتشار صورك وجرائمك بالصحف، حتى أقربائنا تخلوا عنا.. لِما لم تمنحنِ تلك الفرصة عندما انكفأت أمي تبكي عليك ليل نهار متجاهلة زوجها و ابنيها حتى وافتها المنية في سنٍ مبكرة، وكم كان عمري حينها؟ كنت لا أزال بمرحلتي الإبتدائية.. طفلاً سُلِبَ حنانها فجأة وهو يسأل نفسه بماذا أخطأ؟!

وازداد صراخه بي وهو يكمل:

- ألم يكُن ذلك الصبي أولى بحنانها من ابنها المدمن القاتل! أنت! أنت لم تمنحنا ولو فرصة واحدة للحياة الكريمة طوال تلك السنوات الفائتة.. الفرصة الوحيدة التي منحتها لنا حقاً كانت عندما كذبنا على الجميع وأخبرناهم بموتك عندما لم تتحمل حياة السجن. عندما كذبنا وصدقنا كذبتنا. حينها فقط استطعنا الحياة و النظر في أعين الآخرين مرة أخرى. تريد مني الآن أن أمنحك فرصة! تريد مني الآن إعادة ميت أكله التراب للحياة؟! كلا أنا لن أمنحك شيئاً.

ثم أشار بيده صعوداً و هبوطاً عليّ مبتسماً بسخرية:

- أهكذا تعود بعد سنوات من الغياب؟! كيف تريد مني أن أقدمك بهيئتك هذه لأصدقائي لزوجتي وعائلتها، بل حتى كيف تريد مني أن أقدمك لابني.. بماذا سأخبر كل هؤلاء؟ أقول لهم انظروا ها قد بُعِثَ أخي الأكبر للحياة، وعندما يسألني ابني: ماذا يعمل عمي العائد يا أبي؟. بماذا سأجيبه! تريدني أن أخبره عن حقيقة عملك ومسكنك القديم! هل حاولت سؤال نفسك الأنانية تلك التي تريد فرصة أخرى ماذا أعمل أو ماذا أصبحت عليه؟! بالطبع لم تفعل! أتعلم لماذا؟ سأخبرك أنا لماذا.

ثم أكمل بعد أن التقط أنفاسه:

– لأنك فقط أناني لا تفكر إلا بنفسك ولا تريد إلا السعادة لذاتك ملقياً بالجميع أسفل قدمك. تريد من الجميع فقط تنفيذ إرادتك ولا شيء آخر. لكني سأخبرك بما تجهله جيداً. أنا أيها العائد أعمل أستاذاً جامعياً. أرأيت تلك النظرة الذاهلة التي اعتلت وجهك؟ نعم أنا أُدرِّس بالجامعة بعد مجهودٍ شاق استغرقني سنوات لأصل لما أنا عليه. و الآن أخبرني كيف تريد مني إدخالك حياتي التي شقيت لتكوينها. كيف تريد مني أن أكون أنا وأنت بمستوٍ واحد؟!

ثم تنهد بقوة و أكمل:

– لي رجاء واحد وأخير منك عسى أن تحققه لي فتكَّفر بعضاً مما اقترفته بحقي. أكمل حياتك كما اعتدتها، انسنا أو تناسِنا و لا تَعُد لهذا المنزل مرة أخرى فأنت لن يكون مُرحبّاً بك في أرجائه.

كانت تلك كلماته الأخيرة لي قبل أن يُعاد مشهد غلق الباب مرة أخرى. ولَّما انتهى أمري وعدت لوحدتي نزلت إلى الشارع الذي لطالما احتواني أسير هائماً فيه لا أعلم اتّجاهاً ولا وقتاً ولا هدفاً، أسير وعقلي يكرر عليّ ما مررت به قبلاً، ولَّما أنهكني السير جلست فسمعت الأذان يخترق أذني ويتجه مباشرة صوب قلبي، طمعت برحمة الله التي وسعت كل شيء، أتُراه يرفضني؟ دخلت وكُلِّي أمل بالحياة حتى قابلت هذا الشيخ الذي مازال

ينتظر إجابتي بابتسامة لم تفارق شفتيه. خشيت أن أخبره بأمري فيتهرب مني ويركلني خارجاً و أنا لم يعد لي أحد في الحياة.

- أنا الذي ارتكب كل شيء يستطيع عقلك تخيله. أنا العاص المذنب العاق. أتُرى يقبلني ربك إذا لجأت إليه؟

فقط كلمات ألقيتها عليه عبَّرت عن حالي و أمنَّتني نفوره.

- ولما لن يقبلَ بك؟ أليس هو القائل عن نفسه أنه الغفور الرحيم؟

قالها بذات الابتسامة التي لم تفارق شفتيه مربتاً على كفي.

- رُغم كل ما فعلت! بعد كل ما ارتكبت من آثام!

- نعم. يقبلك رُغم كل شيء.. فقط عد إليه تائباً نادماً على ما اقترفت بحقه.

ثم نظر أمامه برهة قبل أن يعيد بصره إلي قائلاً:

أتريدني أن أخبرك عن شاب كان يصغرك بسنوات ضاقت به السبل، وأغلقت الحياة بابها بوجهه فاتَّجه لباب الله فوجده مفتوحاً على مصراعيه ووجد الله عنده تواباً رحيماً؟

- نعم. أرجوك أخبرني عن ذلك الشاب. ماذا فعل؟ و إلى أين انتهى؟

فأعاد بصره لباب المسجد قائلاً بابتسامته المُطمئنة:

- إذن فلتصغ جيداً.. ثم ابتدأ الحديث.

الفصل الثاني

- في أحد أحياء القاهرة الراقية كان هناك قصر منيف. قصر يُذكرك عندما تراه بتلك التي تظهر على شاشة التلفاز أو داخل أروقة المجلات. وكانت تقطنُ به عائلة عريقة امتدت أصولها فاحشة الثراء لعقود. وتألفت الأسرة بذلك الوقت من أب و أم، ابن و ابنة، و حيا على خدمتهم خادمة وابنتها، وسائق ومزارع وبواب. ولم يكتفِ سيد القصر بما وَرِث من والده وأجداده بل وسَّع من ثروته بأن ضاعف عدد شركاته و نوَّع تجارته حتى أضاف على النقود الأولى أضعاف أضعافها. فأصبحت العائلة -بفضله- شهيرة بالوسط الإجتماعي والتجاري بما يكفي لزعزعة صلابة المنافسين بمجرد ذكر اسمها. وكان "السيد الكبير" كما يدعوه خادموه يخرج صباحاً لعمله ولا يعود إلا بعد أن ينتصف الليل وكثيراً قرب بزوغ فجره. وكانت السيدة إما منشغلة بتسوقها النهاري الذي لا ينتهي إلا بعد أن تُنفق جُل أموالها فتُطالب السيد بالمزيد وإما مدعوة لسهرة ما عند إحدى الصديقات فتُمضي الليل هناك ولا تعود إلا وقت عودة الأب وباليوم التالي تبقى في فراشها متعبة جراء الليلة الماضية. اعتادت هذه الحياة منذ نعومة أظافرها

فقد كانت هي الأخرى الابنة الوحيدة لعائلة ثرية فلم يمنعها والدها يوماً عن التسوق أو السهر حتى انتقلت لقصر زوجها الثري فلم تُعنِ بتغيير نمط حياتها رُغم حقيقة أنها أصبحت زوجةً و أماً!

وخلال ذلك الوقت لم يكُن يتبقى بالقصر إلا الابن والابنة. الابن كان يدعى "يوسف" و كان يكبر أخته "ملك" بسبع سنوات. كان يحبها كثيراً كونهما من يلعبان ويمكثان معاً ليل نهار فوالديهما لا يكادان يريانهما إلا بالعطلات والمناسبات الرسمية. و كانت تلعب معهما ابنة الدادة التي تكبر ملك بعام واحد و كانت تدعى "شمس". نشأ الثلاثة كالإخوة، لا يلعبون أو يمرحون إلا سوياً دون حاجز أو فروق طبقية تخللت نفوسهم النقية بعد. يُشرف عليهم والدة شمس التي كان يدعوها الطفلين بـ "دادة سعاد".

ومضت السنون فغيَّرت بهم الكثير و بخاصة يوسف الذي انتقل للمرحلة الجامعية فأصبح طالباً بكلية التجارة قسم إدارة الأعمال ليستطيع تولي شئون شركات والده بعد تخرجه. و لم يقتصر الأمر حينها فقط على عمره الذي ازداد بضع سنوات بل برغبته هو الآخر باستكشاف المجتمع الذي لطالما سلب أبيه وأمه فترك جانب الفتاتين و انضمَّ لمجموعة أصدقاء بمثل عمره و مكانته فكان يمضي الليل بين اللهو وشرب الخمر فلا يصل إلى المنزل إلا قرب بزوغ الفجر فقط لِيُلقي بجسده المنهك على فراشه حتى

قرب مغيب شمس اليوم التالي. أما حياته الجامعية فلم تكُن أفضلَ حالاً. لم يكُن يذهب لجامعته إلا لماماً، ولا ينتقل من عام لآخر إلا بمشقة بالغة وبعد إرسال العديد من الهدايا من جانب والده لأساتذته فقط للتغاضي عن أجوبة ابنه عديمة النفع ومَنْحِه فقط درجة النجاح، وكان الأمر ينجح فينتقل للعام التالي لا يفقه شيئاً عما دار بعامه السابق غارقاً بسهراته وسُكْرِه.

و أثناء غيابه لم يكُن يتبق بالقصر إلا الأميرة ملك و وصيفتها شمس. تذهب كل منهما لمدرستها صباحاً مع مراعاة الفرق الشاسع بين المدرستين، وبعد عودتهما تجتمعان سوياً لإنهاء واجباتهما ثم تقضيان وقتهما المتبقي بين اللعب والحديث عما دار بيومهما. و عندما تنتهيان تتجه كل منهما لغرفتها وتخلد للنوم بانتظار صباح الغد لتُعِيدا الكَرَّة.

وهل كان السيد و السيدة يعلمان ما عليه ابنهما؟ نعم كانا يعلمان كل شيء، لكنهما لم يحركا ساكناً: فهو فقط شاب لديه الكثير، فقط دعه يستمتع بشبابه و أمواله، فقط دعه يُمضي شبابه مثل أقرانه، يوماً ما سيفهم كل شيء. تلك كانت العبارات التي رددها على نفسيهما إذا ضاقا بتصرفاته ذرعاً. ويا لأقرانه من مثال يُحتذى به. جميعهم كانوا مثله و إن لم يكونوا أكثر فساداً منه. ويوم تلا آخر وعلم أولئك الأقران الطريق لقصره. وبالطبع ألقوا نظرة مُتقنة على ساكنيه. فالخادمة أو ابنتها هما من كانتا تفتحان لهم الأبواب.

وكانت شمس بذلك الوقت قد كَبُرَت هي الأخرى فأصبحت تملك من اسمها الكثير: فتاة جميلة تُشِّع نوراً وتملأ القصر مرحاً ودفئاً، مثلما كانت أيضاً فتاة ساذجة بريئة لا تفقه شيئاً من أذى الحياة. كانت تبتسم بوجوه الجميع فتظهر غمازتي خديها فتزيدانها جمالاً. و يبدو أن أحد أصدقاء السيد الصغير قد افتتن بها فكانت لا تمضي الفرصة إلا و يختلس النظر إليها مُشيراً للآخرين بالتطلع أيضاً و التمتع بالنظر لذلك الجمال البريء الذي يتفنن بوصفه لهم كما لو كان شِعراً.. و كانت هي تسير أمامهم مبتسمة لا تفقه من الأمر شيئاً فمَنْ مِنْ هؤلاء الأسياد سينظر لخادمة بالكاد أتمت الثالثة عشر!

لكن كان لوالدتها رأيٌ مُغاير تكوَّن من خبرتها الواسعة بالحياة. أضحت تُميز الصالح من الطالح بمجرد النظر لوجهه. لاحظت والدتها تلك النظرات فحددت إقامتها بالمطبخ وقت حضورهم. حينها كاد يفقد ذلك الصديق الخبير عقله و هو يبحث عنها بعينيه كلما حضر للقصر وما رآها. و باتت مَوضِع سؤاله إما داخل القصر أو خارجه و بكل مرة إما كان يتجاهل يوسف الإجابة أو يخبره ساخراً أنها:

- بالتأكيد لديها عمل. لا تشغل بالك بها.. إنها فقط مجرد طفلة. لا أعلم ما الذي يجذبك إليها؟!

و كان يجيبه ساخراً:

- طفلة! أنت هو الطفل.. إنها فتاة فائقة الجمال و الأنوثة.

ثم يرفع جانب فمه و يُكمل بذات السخرية:

- لا أعلم كيف تتركها هكذا و هي رهن إشارتك؟ لو كنتُ مكانك لفعلت الكثير!

فيسأله يوسف بحيرة:

- الكثير مثل ماذا؟

فيجيبه بابتسامة ظافرة:

- لكنت قد جعلتها لي مثلاً. أليست خادمتي بنهاية الأمر. إذن فهي أحد حقوقي!

حينها كان ينظر إليه باشمئزاز قائلاً:

- أنت لن تتغير أبداً. شمس مثل ملك بالنسبة إليّ. أنا لن أقترب منها. كما أن دادة سعاد بمثابة أمي و أنا لن أؤذها في ابنتها الوحيدة.. أرجو ألا تتحدث عنها مرة أخرى أمامي أو من خلف ظهري و إلا انتهت صداقتنا.. وداعاً.

وكان يتركه ويذهب غاضباً، فتستقبله الفتاتان فرحتين بعودته المبكرة فيُلقي عليهما تحية عابرة ثم يصعد لغرفته.

ومضت الأيام و بمُضِّيها كثُرت رؤيته لشمس إما بذهابه أو إيابه، و أبى الشيطان إلا أن يكرر على عقله حديث صديقه المسموم الذي رفضه من قبل. و أضحى كلما رآها يفر من القصر و كأنه يهرب من وحش يريد الفتك به. و قد كان وحشاً بالفعل! ذلك الحديث المسموم الذي بات يتردد على مسمعيه فعل به الكثير. لكنه كان لا يزال يؤمن بأن شمس فتاة صغيرة و أن صديقه ساذج لا يفقه شيئاً عن النساء.

و كان يوم، أو بمعنى أكثر دقة كانت ليلة غادرت فيها دادة سعاد القصر لتعود أختها المريضة بمسقط رأسيهما بإحدى قرى محافظة البحيرة. حينها أرادت أخذ الفتاة معها فهي قد تمكث ليومين لا تعلم بعد، و لكنَّ الفتاة أبت الذهاب فامتحاناتها على وشك البدء و الفتاة المجتهدة لا تريد فقد أي درجة، كما أن والدتها ستتغيب ليومين على الأكثر فلِمَ الذهاب!

– لا تقلقي أمي. سأمضيهما مع ملك. لا تخشي لن يصيبني مكروه.

طمأنت والدتها و هي تودعها. و قَبِلَت والدتها الأمر مُكرهة، فشمس صغيرتها التي لا تستطيع إرغامها على فعل ما تكره. و يكفيها فخراً أن الفتاة تجتهد لترفع رأسها و تُشرفها أمام كل من شكك بقدراتها. يكفيها فخراً أن تلك الصغيرة الرائعة ابنتها التي خرجت بها من الدنيا بعدما سلبتها كل

شيء. كما أنها تعلم أن القصر آمن، فلتطمئِن نفسها إذن و تُعَجِّل بالذهاب. و غادرت القصر.

أنهت الفتاة استذكار دروسها مع ملك و ودَّعت كل منهما الأخرى متجهة لتنام نوماً هنيئاً بغرفتها. و بذلك الوقت كان يوسف بإحدى الحانات يسكر مع رفاقه. و عندما انتهت سهرتهم السعيدة قرر كل منهم العودة لمنزله ليلقي بجسده على فراشه مُغيب العقل حتى اليوم التالي، شأنهم شأن كل ليلة. قاد سيارته حتى وصل القصر فترجل منها. كان الجميع قد أوى إلى فراشه فالجو بارد و ظلمة الليل كادت تنجلي. سار بخطى مترنحة لغرفته ثم ألقى بجسده على الفراش. لكنه لم يستطع الاستغراق في النوم، فمعدته تصدر أصواتاً مُزعجة تخبره أنها جائعة. غادر غرفته مُكرهاً و اتَّجه للمطبخ ليبحث عن أي طعام يملؤها به. وصل المطبخ و بحث بخطى متعثرة في أرجائه، و لَمَّا لم يجد ما يُرضي شهيته قرر طرق باب دادة سعاد لتُعد له الطعام شأن سنوات صِباه!

ذهب باتّجاه غرفتها و طرق الباب برفق فلم تُجِبه، أعاد الطرق بقوة أكبر منادياً: دادة سعاد.. و لا مجيب. عاد للمطبخ ثانية و لكن لا تقدم ببحثه. فعاد لبابها يطرقه من جديد. و لَمَّا تيقن أنها لن تستيقظ قرر بلحظة فتح الباب ليوقظها بنفسه فهي دادته التي تكاد تقارب والدته عمراً.

دادته التي نشأ على يديها. و التي اعتاد إيقاظها في السنوات الماضية. و فتح الباب ناسياً أو متناسياً وجود الفتاة التي تقطن معها بذات الغرفة منذ حضورهم للقصر. فتحه فرآها هناك وحيدة ممددة ببراءة على الفراش. كان عليه فقط أن يُغلقَ الباب و يُعيد أدراجه لغرفته. فلتذهب معدته إلى الجحيم، لكنه لم يفعل و يا ليته فعل! في البداية أخبر نفسه أنه فقط يريد التطلع إليها عن قُرب ليؤكد لعقله الذي أصبح مُشتتاً مؤخراً سفاهة فكر صديقه. ليؤكد لعقله أنها لا تتعدى كونها "طفلة". و شجعته نفسه على الاقتراب و أطاعها راضياً. ولج الغرفة مُغلقاً بابها بهدوء خلفه حتى لا يراه أحد فهو فقط سينظر نظرة واحدة ثم يذهب بهدوء مثلما حضر، متغافلاً عن السبب الرئيسي الذي أدخله الغرفة من البداية. و اقترب من فراشها ببطء، كانت الفتاة نائمة بطمأنينة و على محياها شبه ابتسامة و كأنما كان يراودها حلمٌ سعيد تخطى حدود العقل و ارتسم على شفتيها فزادها جمالاً فوق ذاك الجمال الذي شكَّله شعرها الأسود الكثيف المنتشر بجانب وجهها الأبيض و عنقها المرمري. و بدأ عقله باستعادة حديث صديقه للتأكيد على زيفه، لكنه و للعجب بدأ يؤمِّن و بقوة على صدقه! فالفتاة حقاً ينضح الجمال البريء من قسماتها: لما لا تكون له؟ أليست خادمته بنهاية الأمر؟ أليس هو أحق بها من أي أحد آخر؟ و كأنه كان سيوجد آخر!

كلمات صديقه باتت تتردد داخل عقله الغائب حتى سيطرت عليه بمساعدة شيطانه اليقظ فقرر الاقتراب أكثر. خطوة تلت أخرى حتى أصبح راقداً بجوارها على الفراش. شعرت الفتاة بلمسات أصابعه المتكررة على شعرها و جسدها فاستيقظت فزعة. و لَمَّا رأت قربه الشديد منها صرخت. فما كان منه إلا أن كمم فمها بيده مشيراً بالأخرى لها أن تلتزم الصمت. نظرت إليه بذعر تتوسل إليه بدموعها المتساقطة و عينيها الفزعتين أن يدعها و شأنها. توسلته ألا يؤذيها. أن يغادر غرفتها. و انحدرت دموعها على ظاهر كفه فبللته، و لكنه غضَّ الطرف عنها فدموعها مهما كثرت لن توازي ذرة من عزم شيطانه الذي أقر داخل عقله المُغيّب أمراً و طالبه بضرورة تنفيذه. صرخت الفتاة، توسلت، خدشت، و ضربت بكل ما منحها جسدها الضعيف من قوة، و لكن لا مجيب و لا رادع فقد تلبسه شيطانه و لم يغادره إلا بعدما انتهى كل شيء فسقط في غياهب النوم جوار جسد قتيلته.

الفصل الثالث

- لقد مضى الوقت سريعاً فقد اقتربت صلاة العصر.

قالها الشيخ متطلعاً لساعة يده. ثم أكمل و هو يستعد للنهوض:

- هيا نجدد وضوءنا و نقرأ القليل من القرآن حتى يحين موعد الصلاة.

سألته بتلهف لمعرفة بقية القصة:

- و شمس! ماذا فعلت؟ ألن تخبرني!

- سأخبرك بكل شيء لا تقلق.

و اتَّجه يسبقني و أنا أتبعه. و استطعت الوضوء هذه المرة، ثم اتجهنا لجانبنا من المسجد. أعطاني مصحفاً و أشار لجواره فجلست. فتحت المصحف و سميت الله. تطلعت لصفحاته التي لم أستطع النظر إليها لسنوات: لِما أجلّت التوبة حتى اليوم؟ لِما لم أتب بالسجن؟ و عجزت عن الإجابة، و لكن أحمد الله أن أنار بصيرتي في النهاية. أحمد الله أن منحني الفرصة لأعود إليه و لو كان في مثل هذا العمر.

أذَّنَ المؤذن فصدَّقنا على كلام الله و أغلقنا المصحف نُردد خلفه. أقمنا الصلاة، و دعوت الله بقلب يعتصره الندم بقبول توبتي، و وعدته ألا أعود لآثامي الماضية. ثم توسلته أن يُلين قلب أبي و يجعله يسامحني. أنهيت الصلاة آملاً ألا تنتهي. فأنا ما خبرت هذه الراحة و السعادة منذ سنوات.

- هيا لنذهب. فقد حان وقت الغذاء.

أخبرني الشيخ و هو يستعد للنهوض. فأجبته و أنا تكاد تتمزق معدتي جوعاً و ليس معي و لو جنيه واحد أُشبِعها به:

- تفضل أنت. سأنتظرك هنا.

- ستأتي معي. نتناول الطعام و أريك غرفتك.

- غرفتي!

- نعم. لدي غرفة على سطح منزلي مجهزة جيداً، تستطيع أن تبق بها.

- شكراً لكرمك. لكن لا أستطيع.

- لماذا؟

- لا أريد أن أثقل كاهلك أكثر. يكفي ما فعلته لي.

- لكني لم أفعل شيئاً!

- لقد فعلت ما لم يستطعه آخر. لقد منحتني أملاً في الحياة بعدما أصابني اليأس و أنا أرى جميع أبوابها توصد بوجهي.

– هيا أنا لن أتركك هنا. كما أن المسجد سيُغلق حتى الصلاة القادمة. لقد طلبت من المسئول أن يمهلنا الوقت الفائت بين الصلاتين. و لأنه يعرفني جيداً فلم يعترض. أين ستذهب إن طلب منك الرحيل؟

– سأتجول بالشارع. فقد اعتدت الأمر.. لا تقلق.

– ألم يكفِك التجول حتى الآن؟!

ثم اتَّجه إليّ و أوقفني مكملاً: هيا يا بني لا تكن عنيداً.

سرت معه ممتناً لِما قدمه و مازال يقدمه لي. شعرت بالخزي أن أعتمد عليه، لكني وعدت الله قبل أن أعد نفسي أني لن أثقل عليه كثيراً، سأبحث عن عمل و أبدأ من جديد لأرد له معروفه. سرنا أحدنا بجانب الآخر حتى وصلنا منزله. لم ألحظ طوال تلك المسافة خجلاً منه تجاهي أو رغبةً في الاختباء من أعين الجيران المتسائلة. بل كان يسير بابتسامة مانحاً ذاك السائر بجواره بملابس مهلهلة و شعر أشعث و ملامح أنهكتها سنوات السجن أملاً في الحياة الكريمة. و قد كان ذاك السائر بالطبع "أنا".

صعد بي للغرفة التي أخبرني عنها. أخرج مفتاحها من بين المفاتيح الأخرى و فتحها مُسمياً. سبقني لفتح نافذتها فأضيأت أرجاؤها.

– أدخل يا بني.

أشار إليّ بيده. فأطعته و دخلت مُقلباً ناظراي بها. كانت غرفة جيدة التأثيث و التقسيم. تحتوي فراشاً يكفي لشخص واحد بجانبه دولاب للملابس و جانب مقابل به موقد جيد و باب داخلي يؤدي لحمام نظيف و مُعد جيداً. غادرني لدقائق و أنا أتطلع للغرفة بذهول و أسأل نفسي: هل حقاً سأحيا هنا بعدما كانت حياتي بين الجرذان و روائح السجن الكريهة؟ هل آنت حقاً الحياة الكريمة لي؟

سألني و هو يطرق الباب المفتوح: أعجبتك؟

– أعجبتني! نظرت إليه لأخبره أن الإعجاب كلمة لا توفِها حقها. أو لن توفِ ما أحياه الآن حقه. فإذا بي أراه يحمل صينية عليها ما لذ و طاب من الطعام قائلاً: هيا اجلس لنأكل سوياً.

– هذا كثير عليّ. أخشى أني أعيش حلماً حان موعد استيقاظي منه، فأجدني كما كنت مازلت داخل زنزانتي.

ابتسم و أجاب: ليس حُلماً اطمئن.

جلست بجانبه أتناول الطعام، و كأن العمر قد عاد بي لطفولتي و أنا أتناول طعام أمي. عاد للوقت الذي كنت آكُل به طعاماً نظيفاً مُعد بحب مثل هذا و ليس الفتات الذي كان يلقيه الزعيم بوجوهنا أو الطعام الذي اعتدت تناوله في السجن. تذكرت أمي، أبي، الصغير "يحيى" الذي أصبح

رجلاً رائعاً و الذي تبرأ مني حتى لا أفسد حياته بحياتي و أختى "مروة" التي كانت تصغرني بأربع سنوات و التي لم أستطع السؤال عنها و معرفة أخبارها، بالتأكيد تزوجت هي الأخرى و لديها أبناء تخشى على مستقبلهم من التعرف بخال مثلي. تذكرت ما كانته الحياة وقت أن كنت أعلم للسعادة معنى فبكيت على ما أقحمت نفسي به. لم أدرِ أني أبكي إلا و الشيخ يسألني:

- أعجبك الطعام؟

فانتبهت أنه يحدثني. نظرت إليه فأعاد سؤاله:

- أسألك إن كان أعجبك الطعام.

أجبته و أنا أكفكف دموعي الخائنة:

- بالطبع.. إنه رائع.. أنا لم أتذوق مثله منذ سنوات طويلة.

- لازلت لم أعرف اسمك! إن كان ذلك لن يضايقك بالطبع.

- بالطبع لا.. اسمي محمد.

ثم أكملت بشبح ابتسامة تعتصر قلبي:

- ذلك الاسم الذي ندِم أبي أن منحني إياه يوماً.

رفع حاجبيه بتعجب:

- لماذا؟ اسمك رائع.

- نعم، رائع لشخص آثم مثلي دنسّ روعته.

- ألا تريد معرفة بقية قصة شمس؟

كان خبيراً في تغيير مجرى الحديث إذا شعر أنه يؤلمني أو يُهيّج عليّ ذكريات يجهلها هو لكنه يعلم جيداً أنها بالتأكيد مؤلمة!

أجبته متماشياً مع رفقه بنفسي: بالطبع.

- إذن فلتُعِّد لنا كوبين من الشاي على ذلك الموقد. فالحديث سيطول.

أطعته و ذهبت لأعد الشاي، و لما انتهيت جلست جواره و أمامنا كوبي الشاي أنتظر حديثه. تطلع أمامه و استأنف:

- تلك الليلة نام يوسف ملء جفنيه حتى أشرقت الشمس مسلَّطة على وجهه فأيقظته. استيقظ متأملاً بتعجب للأثاث المحيط به، يسأل نفسه ماذا أتى به هنا؟ و كيف ينام بهذا الفراش؟ أليست هذه غرفة دادة سعاد! و في جولة عينيه تلك التفت بجنبه للجهة الأخرى فرآها. كانت تجلس القرفصاء على طرف الفراش تحتوي جسدها الصغير بذراعيها الضعيفتين، محاولة لملمة ما تبقى على جسدها المنهك من بقايا ثياب لا تكاد تستر منه شيئاً. كانت جالسة كتمثال جامد و كأن كل عضو بها قد فارق الحياة، إلا من عضو واحد فقط كان ينبض بالحياة و بقوة "عيناها". كانتا تذرفان دموعاً صامتة و ترمقانه بنظرات لم ير مثلها قط قبلاً أو بعداً. نظرات هي مزيج من الانكسار و الألم، الاحتقار و الذهول، و يطغى على كل ذلك نظرة فزعة

تجاهه يصاحبها ارتجافة من جسدها الغض. و تذكر حينها كل شيء: عودته مترنحاً، جوعه، بحثه، دادة سعاد، و في النهاية هي! هي! ما هذا الذي فعله! دادة سعاد، أين هي دادة سعاد! طغى الخوف من دادة سعاد عليه فهرول يجمع ثيابه المبعثرة مغادراً الغرفة غير آبه بمن تركها ترتجف خلفه.

عاد مسرعاً لغرفته يختبيء بها يسأل نفسه و هو يتحرك داخلها جيئةً و ذهاباً ماذا عساه يفعل في تلك الفضيحة؟ بماذا سيخبر دادة سعاد؟ و ماذا سيكون تصرفها معه؟ يضرب رأسه في الحائط من حين لآخر و هو يتذكر جريمته، ما هذا الذي ارتكبه؟ آلاف الأسئلة دون مجيب. و لَمَّا أعياه التفكير اغتسل و بدل ثيابه ثم اتَّجه لمغادرة القصر. قابل في طريقه ملك التي هرولت إليه متسائلة:

- ألم تر شمس اليوم يا يوسف؟ أنا أطرق عليها منذ فترة و لا تفتح لي حتى أنها لا تُجيب.. أخشى أن يكون قد أصابها مكروه.

تطلع إليها بنظرة خاوية لا يعلم بما يجيبها و هي التي تخشى عليها المرض، لا تعلم أن ما حدث لها أشد سوءاً من أي مرض قد تتعرض له بحياتها. و أتى سؤاله لها دون مقدمات:

- ملك، أين دادة سعاد ؟

- ألا تعلم؟ لقد ذهبت بالأمس لزيارة أختها المريضة، ستأتي في الغد.

ثم أعادت نظرها تجاه المطبخ و أكملت بقلق: لكن لما لا تجيب شمس!

و لم يتحمل سماع أسئلتها المتتابعة على قتيلته فغادر مسرعاً. أراد الهروب من أي مكان قد يعثر عليه به أي شخص فقاد سيارته الفارهة لمكان خاوٍ لا يوجد به إلا هو قابعاً خلف المقود، لكن ما باله لا يستطيع الفرار من نظراتها التي رمقته بها؟ أمضى نهاره و ليله خارجاً يتنقل من مكان لآخر مغلقاً هاتفه ليضمن ألا يزعجه أحد. و لما اقترب بزوغ الفجر عاد أدراجه للقصر و اتَّجه لغرفته لينام فقد أعياه التفكير عقله و لم يستطع التوصل لحل يُنقذه من معضلته. و استيقظ بعد ساعات فزعاً فقد راوده كابوس كانت دادة سعاد تخنق عنقه به! اعتدل على الفراش يمرر يده على عنقه ليؤكد لنفسه أنه فقط مجرد كابوس و أنه لا زال على قيد الحياة، ثم نظر لهاتفه فوجدها الثانية ظهراً. اغتسل و أعاد ارتداء ملابسه ليخرج مرة أخرى. فوجوده داخل القصر بات يجثم على صدره و يوقف أنفاسه. هبط السلم و بينما كان يفتح باب القصر سمعها تناديه:

- صباح الخير يوسف. ألن تتناول الإفطار قبل ذهابك؟

"دادة سعاد! " تسمَّرت قدماه للحظات يفكر بكل طرق القتل التي سوف تستخدمها للتخلص منه. أعاد ترديد حديثها بعقله: ماذا! صباح

الخير! إفطار! صدمته نبرتها الحانية و قلقها عليه أكثر مما صدمه صمتها بشأن ما حدث! و بينما كان لا يزال يفكر مانحاً إياها ظهره سمع أخته تخاطبه:

- أرأيت يا يوسف.. لقد التقطت شمس حمى شديدة، لكنها ترفض الذهاب للطبيب.. أرجوك حاول إقناعها لتفعل، إنها تستمع لكلامك.

و اطمأن إلى أن الفتاة لم تخبر أحداً، و لوهلة شعر أنه نجا، حاول السيطرة على تنفسه المضطرب قبل أن يجيب أخته بصوت بذل الكثير ليخرجه طبيعياً:

- اتركيها على راحتها.. أين أمي؟ و كان لا زال يمسك بمقبض الباب.

- لقد ذهبت برحلة مع صديقاتها منذ يومين، ستعود هذا المساء.

- و متى عادت!

لفظها بسخرية و هو يغلق الباب بعنف خلفه.

و مضت الأيام و الشاب يقضي أكثرها خارج القصر يخشى أن يجمعه القدر بضحيته أو حتى والدتها التي ما انفكت تغرقه بحنانها جاهلة بما اقترف بحقها! و يبدو أن الضحية التزمت غرفتها منذ تلك الليلة فلم يعد يراها مطلقاً. بالطبع أثار تصرفها المغاير لطبيعتها المرحة رِيبة في صدر والدتها و حزناً بقلب صديقتها التي أصبحت تمضي يومها و ليلتها وحيدة

دون أب أو أم، أخ و حتى الصديقة التي كانت كل شيء، و لكنهما رغم كل ما فعلتا لم تستطيعا إخراجها من عزلتها أو إعادة بسمتها المشرقة. و رغم كل الأسئلة التي تدور داخلهما و على لسانيهما لم تستطيعا الحصول منها على إجابة تطفيء النار المشتعلة بعقليهما فأصمتاهما مرغمتين. و الفتاة أخفت الأمر بنجاح، ربما كان ذلك رهبة من العقاب الذي ستناله من والدتها إذا أخبرتها عن الأمر. فاختارت الكتمان للحفاظ على ما تبقى من جسدها. وكل ذلك صبَّ بالطبع في مصلحة الشاب الأناني الذي يوماً وراء آخر بات ينسى فعلته النكراء في غمرة سهراته و سُكرِه. لكن و كما العادة تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن! آلم القدر ما رأى فكان له رأي آخر. فالمذنب لابد له من عقاب و ما عقاب ما ارتكب إلا نطفة بدأت تنمو برحم طفلة بالكاد بدأت عامها الرابع عشر..

أصاب الفتاة الهُزال. و لم تعد اللقيمات القليلة التي تتناولها تستقر بمعدتها. أصبحت الصغيرة بهزال عود الثقاب المشتعل قبلاً. و لَّما لم يتبق بذلك الجسد الصغير قوة سقط مغشياً عليه. هرولت والدتها بها لأقرب طبيب، تكاد تُجن مما طرأ على طفلتها التي كانت مثل الزهرة المتفتحة لتصبح بين ليلة و ضحاها مجرد بقايا ذابلة لزهرة تتساقط وريقاتها واحدة تلو الأخرى. هرولت بمن أفنت سنوات عمرها على تنشأتها تنشئة تجعل

الأخريات يغبطنها ليكنَّ مثلها. كانت لها الأم و الأب بعدما تخلى الوالد عنهما ليسعى وراء أخرى سلبته قلبه و أمواله فهرب معها ملقياً الاثنتين خلف ظهره و لم يلتفت للسؤال يوماً بل اختفى من الحياة كأن لم يكن بها و لم تسع هي للبحث عنه فهو لم يكُن يوماً سنداً و زوجاً لتطالبه بيأس أن يكون أباً. و طفلتها كانت متعاونة، لم تسأل عنه مُذ رأته يرحل و لم تذكره مرة أمام والدتها رأفة بقلبها. أقرت الاثنتان بموته و هما تعلمان أنه لن يُبعث مرة أخرى. و الآن هل ستغادرها الصغيرة هي الأخرى؟!

أسرعت تتوسل للطبيب أن يُطمئن فؤادها المضطرب. هدأها الطبيب و أجرى الكشف على الفتاة، طلب تحليلاً لدمها فهو بداخله شك يريد التيقن من صحته. نقل بصره بين الفتاة الصامتة المرتجفة و الأم الوجلة و هو يتطلع بتفكير لتحليل دمها و عجز عن التحدث. فسألته هي:

- ما بها ابنتي أيها الطبيب؟ ما بال زهرتي ذابلة؟ ما بال شمسي غائبة؟

ليعيد تقليب بصره بينهما قبل أن يثبته على المرأة قائلاً:

- ابنتك حامل بطفل بدأ ينمو داخل أحشائها منذ شهرين و نصف.

و كأن الطبيب قد فقد عقله. ما هذا الذي يهذي به! بقيت تتطلع إليه بذهول صامت تريده أن ينفي حديثه الأخرق و لَمَّا شعرت ألا نية له بذلك نقلت بصرها لطفلتها المنتحبة، ما بالهما قد جُنا؟! لما تبكي الصغيرة و كأنها

تؤمِّن على هذيان طبيب لا يفقه من مهنته حرفاً؟ أسرعت تجذب الفتاة من كتفيها صارخة بها:

- ما هذا الذي يهذي به؟ لما تبكين أيتها الساذجة؟ إنه مخطيء بلا شك.

و ازداد نحيب الفتاة، حاول الطبيب جاهداً تخليصها من والدتها، و لكن الأم أبت إفلاتها و بقيت تهز جسدها بقوة، تريدها أن تنفي الأمر، أن تخبرها فقط أنه كاذب، أن تبتسم بسخرية على هذا الهراء. لكنها لم تفعل! فتيقنت الأم أن ذلك الهراء المزعوم إنما هو الحقيقة التي لا تحتمل شكاً فسقطت أرضاً تصرخ، تبكي، تكاد تفقد ما تبقى من عقلها بعد فرار الزوج. فكرت و هي تتطلع لفتاتها الباكية: كيف لهذه الصغيرة التي لا تترك القصر إلا للذهاب إلى مدرستها أن تجلب لها العار؟ كيف لهذه الصغيرة أن تحمل بداخلها طفلاً؟ و ممن أتى هذا الطفل؟ و كأنها أمسكت بطرف الخيط الذي سيكشف لها كل شيء. لمَّا اهتدت بتفكيرها إليه تحاملت على قدميها لتنهض، تشبثت بالفتاة صارخة:

- من فعل بكِ هذا؟ من والد هذا الطفل؟ أخبريني عمن سلبني روحي و شرفي و كرامتي!

و توالت الصدمات على روحها المُثقلة و هي تسمع صوت الفتاة المتقطع، تخبرها من بين دموعها:

- يوسف فعل.

و كأن القدر يأبى إلا الفتك بها، ابتعدت عن الفتاة بقوة و كأن ماساً كهربائياً قد صعق جسدها، صرخت:

- أسألكِ من فعل!

فتصرخ الفتاة مقابلها:

- يوسف فعل. إنه يوسف يا أمي.. أنا لا أكذب.

لتردد المرأة بذهول:

- يوسف! يوسف هو من فعل بكِ هذا؟

و أمنَّت الفتاة على سؤالها: نعم.

ليأتي السؤال الحتمي:

- متى؟ أنا لا أغادركِ مطلقاً.

- ليلة أن ذهبتِ لزيارة خالتي.

أجابتها ليذهب ما تبقى من عقلها. فبدأت تخاطب نفسها على مرأى ومسمع منهما:

– يوسف فعل! يوسف هو من سلبكِ و سلبني كل شيء! كيف هذا؟ و لماذا؟ أهذه مكافأتي لخدمتي له كل تلك السنوات؟ لقد اتَّخذته و أخته طفلين لي و شاركتهم حبك! أهذا ما قررت دفعه لي يا يوسف؟

ثم أتى أمرها: هيا لنعد للقصر.

و لم تنتظر جواباً بل جذبت الفتاة من يدها تجرها وراءها، تريد أن تصل للقصر بأسرع وقت غير ملقية بالاً للمتعثرة خلفها و التي تحاول مجاراة خطواتها المتعجلة. القصر! ذلك البناء الشامخ الذي استنزف سنوات عمرها و هي تحيا خادمة لكل فرد به. و ما المكافأة التي حصلت عليها بالنهاية؟ سلبوا منها أغلى ما تملك بل كل ما تملك. ولجت القصر تتبعها صغيرتها، نظرت حولها فوجدت سيدتها قد احتلت مقعداً وثيراً تتطلع بتركيز لإحدى مجلات الموضة الحديثة لا تحمل للعالم هماً كما كانت دوماً طوال العشرة الأعوام الماضية التي قضتها في خدمتها. ابتسمت بسخرية ثم أعادت جذب يد الفتاة و اتجهت لسيدتها التي ستقتص لها و ابنتها من ابنها الفاسق. آمنت بالعدل و كانت على يقين أن السيدة هي الأخرى مؤمنة به. فبرغم جميع المساويء التي توجد بها إلا أنها لم تُهدر حقها يوماً، لكن ذلك الحق من نوع آخر. و هي كانت تعلم ذلك جيداً.

و عندما رأتها السيدة ماثلة أمامها و من خلفها ابنتها، سألتها و هي تعيد النظر للمجلة:

- ملك أخبرتني أن شمس مريضة. ما بها؟

- إن مرض شمس ليس كأي مرض قد تأخذ له دواءً فتُشفى.

- لماذا؟ ماذا حل بها؟

- إن شمس حاملٌ يا سيدتي.

- ماذا؟!

مفاجأة عصفت بالسيدة.. فسألتها و هي تضع المجلة جانباً: كيف ذلك؟

فتحدثت الأم بثبات صاحب الحق:

- اسألي يوسف يا سيدتي يُجيبك.

- و ما علاقة يوسف بالأمر؟

و أكملت الدادة بنفس الثبات:

- يوسف هو من اعتدى على ابنتي عندما كنت خارج القصر أزور أختي المريضة. لم أكُن أعلم أني سأعود لأجد ابنتي صريعةً هنا!

صرخت بها السيدة:

– ما هذا الذي تهذين به! يوسف لم يفعل لابنتك شيئاً. أم تُراكِ تودين إلقاء سلوك ابنتك المشين عليه!

ثم جذبت الفتاة من ذراعها بقوة آلمتها و هي تسألها:

– أخبريني من فعل بكِ هذا!

فتصاعد نحيب الفتاة الوجِل، و أسرعت والدتها لنجدتها نازعة يد سيدتها عنها ثم وضعتها خلفها و وقفت هي بوجه العاصفة. أُسقط بيد السيدة و لم تعرف ماذا تفعل فأسرعت للاتصال بزوجها تطلب حضوره فهو الوحيد القادر على إظهار كذب هذه المرأة المتبجحة و التعامل معه. المرأة التي آووها كل تلك السنوات لتأتي في النهاية و تنكر فضلهم عليها وعلى ابنتها بل و تتهم ابنها بالاعتداء على الفتاة!

و لم تمض الساعة إلا و كان السيد بالقصر. نظر بتساؤل لزوجته وقلَّب النظر بينها و بين سعاد الواقفة بثبات أمامها ممسكة بيد شمس، ثم سأل متطلعاً للوقت في ساعته الثمينة:

– ماذا هناك؟ لقد تركت أعمالي و أتيت مسرعاً.

أشارت زوجته بسبابتها على سعاد بإصبعها قائلة بتهكم:

– سعاد يا أمجد، تقول أن ابنتها حامل!

– ماذا؟!

- لا تتفاجأ هكذا، فالمفاجأة لم تأت بعد. أتعلم من والد الجنين كما تزعم؟

- من؟

فأجابت بذات التهكم:

- ابننا يوسف! أتصدق ذلك؟!

و لكن يبدو أن السيد الكبير قد صدَّق بالفعل فلم يُظهر تفاجأً أو يطلب دلائلاً. نظر لزوجته بهدوء ثم تطلع للخادمة و ابنتها و قال وهو يجلس على المقعد الذي كانت تحتله زوجته منذ برهة:

- اجلسي يا سعاد.

و أشار لها بالجلوس على أحد المقاعد المواجهة له. أطاعته و أجلست ابنتها جوارها آملة أن ينصفهما السيد و لو كان على حساب ابنه. سألها و هو يتطلع للفتاة:

- أنتِ متأكدة من حديثكِ يا سعاد؟

أخرجت أوراق الطبيب من حقيبة يدها قائلة و هي تظهرها لهما:

- هذه التحاليل التي تثبت صدق حديثي.

و لم يطالبها بالنظر في الأوراق فقد أظهر تصديقاً لحديثها. وأعاد سؤالها:

- إذن شمس بأي شهر الآن؟

أجابته بهدوء: منتصف الثالث.

- إذن لا زالت أمامنا فرصة.

حدثَّ نفسه بصوت خفيض. قبل أن يعيد بصره لسعاد مستأنفاً:

- سعاد. لقد عملتِ لدينا لعشر سنوات لم نر خلالهم منك أو من شمس سوءاً.. فأنت خدمتنا بكل إخلاص و أمانة.. و اهتممتِ بابني وابنتي كأفضل ما يكون.. كما أني أحب شمس مثل ملك إن لم يكُن أكثر.. وتذكري أن ما سأقوله الآن هدفه أولاً و أخيراً مصلحة شمس!

ثم صمت قليلاً قبل أن يُردِف:

- على شمس أن تُجهض جنينها. و أنا سأمنحكما ما يُغنيكما عن سؤال الرزق و يُمكِّنكما من الحياة الرغيدة لبقية العمر.

تطلعت المرأة بذهول إليه، رأته يهدم أملها الأخير بالانصاف في هذه الحياة بجملة واحدة. ما بال جميع الرجال يتساقطون واحداً تلو الآخر من عينيها!

نهضت تجذب الفتاة جوارها ضاغطة بقوة على كل حرف تخرجه من بين شفتيها:

- أنا لن أضحي بحياة ابنتي من أجل حفنة من المال.

– اهدأي يا سعاد و حاولي التفكير بالأمر. سأمنحك وقتاً لتفكري على مهل. و لتسألي نفسك ما هي الاستفادة التي ستعود عليكِ إذا احتفظتما بجنين لا أب له! طفل كل ما سيحصل عليه هو الإقصاء و السخرية إضافة لما سينشره الناس عن عرض ابنتك قائلين...

قاطعت حديثه قبل أن يتفوه بكلمة قد تصرع فتاتها في الحال:

– أنا لن أفكر بشيء. هناك فقط حل واحد لا ثاني له.

– و ما هو ذلك الحل برأيكِ؟

استشعرت تهكماً واضحاً بسؤاله و لكنها لم تلقِ بالاً فالموقف الذي تحياه الآن يتطلب منها التخلي عن كل شيء. فهل سلتقِ بالاً لنبرة! تغاضت مجيبة:

– أن يتحمل يوسف خطأه و يتزوجها.

و كأنها ألقت عليهما دلو ماء بارد في جو قارص البرودة، انتفضت السيدة تصرخ بها:

– ماذا؟ كيف تجرؤين على مجرد التفكير بالأمر! قولي أنكِ إنما خططت لكل ذلك من البداية لتصلي إلى هذه النتيجة. لربما كان ذهابك لزيارة أختك حينها تمثيليةً من الأساس! ثم ما يدرينا أن ابنتك حامل بالفعل يمكن أنك

سعيت لكل ذلك لتوريط ابني! لكن كلا لقد خاب ظنكِ يا سعاد.. ابني أبداً لن يتزوج من خادمته.. أتريدين تدمير مستقبله!

- إذن لِما اعتدى على الخادمة! رتبت الأمر! يا للسخرية! أضحّي بشرفي و شرف ابنتي برأيك و لماذا.. من أجل المال! حقاً مازال هناك الكثير من مساويء الحياة لازلت أجهلها.

صمتت برهة تلتقط أنفاسها ثم استأنفت:

- هذه و للمرة الثانية التحاليل التي تُثبت حملها.. بإمكانك التأكد من أي طبيب.

ثم ألقت ما بيدها من تحاليل أرضاَ. و أعادت النظر لسيدها تدعو الله داخلها أن يرفق بها و بتوسلها، خاطبته بأمل:

- ألم تقل للتو أنك تحبها مثل ولديك؟ هل لو كانت ملك مكانها لرضيتَ بهذا الحل الذي تقترحه عليّ؟

دفعتها سيدتها بيدها صائحة:

- اخرسي! ملك ابنتي أطهر و أشرف من الجميع. كيف تجرؤين على مقارنتها بابنتك.

فنظرت إليها المرأة قائلة بألم:

- ابنتي أيضاً كانت أطهر ما يكون حتى دنسَّ طهرها ابنكما.

دفعتها السيدة مرة أخرى و هي تشتعل غضباً، لكن هذه المرة كانت باتّجاه باب القصر، وبقيت تدفعها و هي تصرخ:

- اخرجي من منزلي. أنت لن تبقي هنا لدقيقة أخرى.. اخرجي.

و استمرت بدفعها حتى أخرجتها إلى الحديقة. و صاح زوجها:

- انتظري.

فتركتها تتوسط الحديقة الشاسعة. سار حتى وصل إليها ثم وضع يده داخل جيب سترته و أخرج حفنة من الأوراق النقدية. التقط يد سعاد وفتحها، وضع المال داخلها ثم أغلقها قائلاً:

- فكري يا سعاد بعرضي و لا تكوني عنيدة. حينما تقررين تعالي إليّ وأنا سأتكفل بالأمر.

فتحت سعاد قبضتها تنظر للفئات النقدية الكبيرة التي وضعها بداخلها. ثم تتطلع إليها و هما يقفان بشموخ أمامها و تعيد نظرها للفتاة المرتجفة المتشبثة بثيابها، الفتاة التي وعت بأقل من ساعة على الكثير. أعادت بصرها إليها، تراهما يكادان يبتسمان بظفر و هما يفكران أنها قبلت عرضها و ستفعل ما يأمرونها به كما اعتادوا منها دوماً. و لكن هذه المرة الأمر مختلف إنها ابنتها! إنها الأغلى عليها من نفسها! ابتسمت هي الأخرى تجابه ابتسامتها قبل أن تُسقط ما بيدها من نقود أرضاً. لم تقل شيئاً فما فائدة

الحديث مع بشر صمّوا آذانهم و ضمائرهم. يكفيها ما قالت فلن يتغير من الأمر شيء. تطلعت للقصر تودعه بنظرتها قبل أن تفارقه إلى الأبد، فرأته هناك. يتطلع من شرفة غرفته إليهم، و ملك هي الأخرى تفعل مثله. هرولت تقترب من شرفته، صرخت به:

- أنت فعلتها يا يوسف! أنت من سلبني حياتي و شرفي.. أنا لن أغفرلك ما حييت.

ثم تطلعت مرة أخرى للسيد و السيدة، شعرت بالضياع، أحست بالعجز يجثم على صدرها. هي صاحبة الحق عاجزة و هم الجناة يقفون رافعين هاماتهم شامخين. علمت أنه لم يعد لها ملجأً إلا خالقها، تذكرت أن دعوة المظلوم لا ترد. و هما مظلومتان و الله يشهد. أدركت أنه الوحيد القادر على إنصافها فرفعت يديها تتوسله صارخة من أعماقها، تنحدر دموعها بغزارة على وجهها:

- يارب اسلبهم كل ما يتجبرون به على خلقك.. يارب أشعل قلوبهم كما تضطرم النار بقلبي الآن. يارب اللهم انتقامك لي و لهذه الطفلة الضعيفة.

ثم أمنَّت على دعائها بصرخة زلزلت كيان يوسف:

- يارب.

أشار السيد لحارس البوابة بطردها، فهرول ملبياً نداء سيده، جذبها وابنتها بقوة للخارج و هي تُكمل صراخها الباكي:

- اللهم انتقامك لأمتك الضعيفة.. اللهم حقي و حق ابنتي.

و أُغلقت البوابة بوجهها و دخل الجميع مغلقين أبوابهم و لم يتبق إلا ملك الباكية تتطلع من شرفتها بنظرة تودِّع بها صديقتها و دادتها اللتين منحتاها كل الحب و الحنان الذي رغبت به منذ نعومة أظافرها و أجابتها الأخرى بنظرة باكية كسيرة قبل أن تخفض رأسها و تتبع والدتها بصمت.

خاضت الخادمة المعركة بمفردها ضد القوة و الجاه و النفوذ. كالأعزل في مواجهة وحش مفترس، و انتصرت قوانين الطبيعة فكان البقاء كما كان دائماً و أبداً "للأقوى". و رحلت دادة سعاد و ابنتها تودعهما نظرات طفلة لم تلوثها تلك الحياة بعد.

و بقيت ملك بشرفتها تبكي لا تعلم ما يدور من حولها، لماذا كانت الدادة تصرخ ؟ و لماذا كانت شمس تبكي؟. لما ذهبتا؟ و إلى أين؟. و عندما لم تجد إجابة لأي سؤال مما دار بعقلها أسرعت لسؤال والديها، فهما بالتأكيد سيوضحان لها كل غامض. خرجت من غرفتها و اتَّجهت لهبوط السلم ولكن شيء ما أوقفها على مقدمته و منعها من النزول. فهذا صوت أبيها يَسُّب أخيها يوسف، و هذه والدتها تحاول تهدأته قائلة:

– ماذا بك؟ لما أنت منفعلٌ هكذا؟ إنه شاب. أنا معك أنه أخطأ لكنها ليست نهاية العالم على أية حال.

و صرخ الوالد بها:

– إن الفتاة حامل يا هانم.. أخبريني ماذا سيحدث إذا عَلِم أحد منافسيني بالأمر؟

صدمت ألجمت يوسف. لم يكُن يعلم أن شمس حامل. فهو لم يُعد التفكير بفعلته بعد مرور إسبوع من الواقعة. بلى تناساها في خضم حياته اللاهية، عندما لم يعد يرى الفتاة و تأكد من إخفائها للأمر بنجاح. إذن لما يُرهق نفسه بالتفكير؟! و لكن القدر لم يدعه و شأنه. فخرج إليه بهذا الخبر الذي يكاد يخرق أذنيه و يوقف قلبه.

و أكمل الوالد صراخه:

– أنتِ السبب بما حدث. أنت التي أفسدته بدلالك له. أنت السبب بإهمالك له منذ ميلاده لتتفرغي لتسوقك و سهراتك التي لا تنتهي...

و تترك الوالدة جانب يوسف لترد على أبيه بصراخ مماثل:

– تريد أن تلقي عليّ الآن كل اللوم.. و أنت أين كنت أيها الواعظ؟ لم أرك تجلس معه و لو لمرة!

– كنت أرعى المال الذي تنفقين منه!

- انتهيتما!

كانت الصرخة هذه المرة من نصيب يوسف. قلَّب بصره بينهما مكملاً:

- أنتما حتى لم تسألاني عن رأيي قبل أن تُهيناهما و تطردانهما بهذه الطريقة! لقد كنت على استعداد لتحمل وزري و الزواج بشمس. لِما لم تطلبا رأيي بهذا الشأن؟!

و كانت الصفعة هي إجابة والدته عما تفوه به من حماقة برأيها. ابتسمت بسخرية بعد أن أعادت يدها لجانبها:

- ماذا تقول؟ أسمعني مرة أخرى. أتريد الزواج بالخادمة؟!

صاح بها متلمساً بكفه موضع صفعتها:

- و ماذا يمنع؟ ألم تقولا أنها تحمل طفلي؟

جذبته من ملابسه بعنف مشيرة بسبابتها في وجهه قائلة بصرامة:

- على جثتي يا يوسف! أتسمعني! على جثتي.

نفض يديها عنه ثم نقل بصره بينهما و غادر القصر صافقاً الباب بقوة خلفه. صفقة باب تلتها دحرجة من أعلى السلم. نظر الوالدان بفزع فإذا بجسد ملك ممدد أمامهما.

الفصل الرابع

لم ينتبها لتدحرجها على درجات السلم في خضم نزاعهما مع أخيها ليفاجآ بها ممددة أمامهما دون حراك! صرخت الأم و أسرع الأب يحملها لفراشها. فحصا نبضها و اطمأنا أنها بخير. حاولت والدتها الجالسة جوارها تبكي إفاقتها، و بعد عدة محاولات استفاقت صارخة. ضمتها والدتها إليها و ربتت برفق على ظهرها، تتحدث معها بين الحين و الآخر لتهدأتها، فما رأته و سمعته ليس بهين على نفسها المرهفة. و بعد أن هدأت الفتاة قليلاً ابتعدت عن ذراعي والدتها تطالعها بتساؤل:

– لماذا ذهبت دادة سعاد يا أمي؟ لماذا كان يصرخ أخي قائلاً أن شمس تحمل طفله؟ أمي أخبريني لما رحلت شمس؟!

ضمتها والدتها إليها مرة أخرى، أرادت التفنن بخداعها، فنمقت إجابات لم تحمل من الصدق شيئاً، لكنها حملت من الطمأنينة الكثير:

– لقد ذهبت الدادة لتحيا مع أختها، فهي مريضة للغاية و دادة سعاد توسلتنا لترك القصر و البقاء معها.أما شمس فقد كانت تبكي لأنها ترغب بالبقاء معكِ، و لكن والدتها أرغمتها على الذهاب.

- إذن هل ستعودان قريباً؟

- لا أعلم يا حبيبتي. فسعاد لم تخبرني عن موعد عودتهما.

و يبدو أن الوالد لم يستطع تحمل المزيد من أكاذيب زوجته. فاتَّجه لتقبيل جبهة الفتاة متمنياً لها السلامة ثم غادر عائداً لشركته.

و برغم أن الأم أتقنت كذبتها إلا أنه كان هناك صوت داخل الفتاة يخبرها أن والدتها "تكذب". ذات الصوت الذي طلب منها أن تجاريها بكذبها، فأوهمت والدتها أنها قد آمنت بكل أكاذيبها، و تردد بداخلها سؤال أخيها المستنكر: أليست تحمل طفلي؟ هي تعلم جيداً أن هناك شيء خاطيء، لكن ما هو؟ و يبدأ جهلها من هذه النقطة. فلتسأل يوسف إذن عندما يعود، فأخوها الحبيب لن يكذب عليها مثلما فعلت والدتها. أخوها الحبيب هو الوحيد الذي سيجيب كل أسئلتها و يوضح لها كل غامض كعادته الدائمة معها. فلتنتظر عودته إذن.

و انتظرت عودة الأخ ليومين متتاليين، لكنه لم يعُد و لم تطأ قدماه القصر. كل مساء كانت تنتظره بالبهو حتى ينتصف الليل فيغلبها النعاس فتصعد حانقة لتنام، لتستيقظ في الصباح التالي مهرولة لغرفته فتجد أنه لم يعد في الليلة الماضية. أحضر والديها في اليوم الذي تلا مغادرة الدادة أخرى تهتم بشئونهما فأيقنت أنها لن تعود! رفضت ملك تلك الدادة الجديدة منذ

مجيئها أو ربما قبل أن تراها، و أخبرتها بوجهها أنها أبداً لن تأخذ مكان دادة سعاد بقلبها مهما فعلت، و كرد فعل عاجز لإرادتها التي لم يستمع إليها أحد التزمت غرفتها فلم تعد تخرج منها إلا لتفقد أخيها.

حاولت التواصل مع شمس بأي طريقة، لكنها لم تستطع فشمس لم تعُد بالطبع تذهب لمدرستها ولا حتى تمتلك هاتفاً و عندما كررت الاتصال على دادة سعاد لم تجبها و كأنها تخبرها أنها تريد قطع أي صلة بهم، و لديها كل الحق. يكفي الطريقة التي طُردتا بها من القصر. شعرت بالخزي فلم تحاول بعدها. و في الليلة الثالثة عاد أخوها مترنحاً محاولاً الاستناد على أي شيء بطريقه حتى لا يسقط أرضاً. و عندما رآها تقف أمامه تمنعه الصعود أشار لها بيده مبتسماً أن "أراكِ لاحقاً". حاول تجنبها فكاد يقع، أسرعت تسنده إليها، لكنه أبعدها عنه قائلاً و رائحة الخمر تفوح من فمه:

- أنا بخير يا ملك. فقط عودي لغرفتك.. طابت ليلتكِ يا صغيرتي.

حاولت سؤاله و هي تصعد بجانبه تلك الأسئلة المؤجلة بحلقها للأيام الماضية:

- يوسف أريد أن أسألك شيئاً.

و كانت إجابته التي علمتها قبلاً:

- ليس الآن ملك. فأنا مُتعب و أريد أن أنام. نتحدث في الغد.

ثم تركها و ذهب. و ضاع طول انتظارها له هباءً. و لم يأتِ ذلك "الغد" المزعوم أبداً. فقد مضت الأيام و الشهور و هو يتحجج بالغد. كان يتهرب من نفسه قبل الجميع، لكن لم يؤتِ ذلك الهروب ثماره. فمهما حاول لم يستطع الهروب من النظرة التي رمقته بها شمس تلك الليلة المشئومة، لم يستطع الهروب من نظرتها الأخيرة التي تطلعت بها بعجز إليه قبل أن تُطرد من القصر على مرأى و مسمع منه. نظرتها التي وشت بكل ما اعتمل داخلها تجاهه تخبره بها أنه من سلبها كل شيء و تسأله: هل أنت راضٍ الآن؟. حينها أراد أن يُقسم لها أنه ليس راضياً على الإطلاق. وقتها أراد أن يتزوجها و يحتمل نتيجة إثمه فلِما تحمله هي و هو المذنب أولاً و أخيراً! لكن لا والديه لم يكونا ليقبلا بقراره أبداً، و قد أوضحت له والدته رأيها بهذا الشأن و صفعتها كانت خير دليل. موته أهون عليهما مما كان سيفعل. و هو لا يعلم معنى الاعتماد على النفس و لا كسب الرزق فكيف كان سيحيا إذا قرر والداه التبرأ منه!

لم يستطع الهروب من انقباض قلبه عندما رفعت دادة سعاد يديها للسماء تصب لعناتها عليهم صارخة بأعلى صوتها "يارب" لم يعلم قبلاً أن مجرد نطق كلمة قد يفعل به ذلك، حينها شعر بتيار كهربي يسري خلال جسده؛ حينها أراد أن يركع و يتوسل المغفرة من المرأة التي أحبها أكثر من

الجميع: من والدته التي أنجبته، أكثر حتى من الصغيرة ملك. المرأة التي كانت يوماً الأم التي منحت ما ابتغى من حب و عطف، الحضن الدافيء وسط حياته المُثلجة. و بماذا كافئها لكل ما بذلته له؟ سلبها كل شيء. صرخت نفسه مراراً: آسف دادة سعاد، أقسم أنها كانت زلة. لم أُرِد ذلك ولم أنوِ يوماً. أقسم أني كنت مُغيباً وقتها.. لكن بما يفيد الصراخ! لقد غادرتاه للأبد. فليعد لبرودة أيامه وحيداً كما كان. و حتى صغيرته ملك الوحيدة المتبقية له أصبح يهرب منها هي الأخرى، يشعر أنها أنقى من أن يُدنس لسانها بمجرد التحدث معه.

و عندما أدرك ما آل إليه أمره هرب للخمر يتجرعها و كأنها الدواء الشافي لكل الألم الذي يشعر به. لو فقط احتواه أحد والديه لما لجأ لتلك السموم التي تنهش عقله و جسده، لكن كلا لم يفعل أيهما ذلك و لو لمرة. وبكل مرة أراد بها التوقف عن شربها أحاطت به نظرة شمس فيشعر أن عقله يكاد يُجن فيعود إليها من جديد. و انقضت الأيام حتى أصبحت شهوراً تمضي و الكل لاهٍ في حياته كما هو لا جديد و لم تكن هناك مؤشرات لحدوث جديد حتى تغير كل شيء بلحظة واحدة.

- الله أكبر.. الله أكبر.

تصاعد الأذان من المسجد القريب فتوقف الشيخ عن السرد. كان يردد خلف المؤذن ففعلت مثله. و عندما انتهى نظر إليّ قائلاً:

- هيا نذهب للصلاة. و بعد أن ننتهي سآخذك لمحل أعرف مالكه جيداً ننظر إن كان لديه عمل لك. و إن لم يكن نبحث بمكان آخر. الجيران هنا أصدقائي و سيرغبون بمساعدتي.

ظللت أنظر إليه و أسأل نفسي: من أين هبط ذلك الرجل؟ و لما يفعل كل هذا معي ؟ لقد فقدت الأمل بكل من حولي ليظهر هو من العدم و يقوم بمساعدتي دون سؤال و بلا مقابل!

كل ذلك دار داخلي ليخرج على هيئة سؤال واحد:

- لماذا تفعل كل ذلك لي؟

و يجيبني بهدوء:

- أنا لم أفعل شيئاً، لا تُثقل كاهلك بالتفكير. أنا فقط أبِرُّ بقسمٍ أقسمته على نفسي يوماً. هيا حتى لا نفوِّت الصلاة.

عدنا للمسجد الذي كنا به منذ ساعات، أقمنا الصلاة و بعد أن انتهينا ذهب بي للمحل الذي حدثَّني بشأنه. كان محلاً صغيراً متخصصاً بصنع الفول و الطعمية.

- انتظرني هنا.

أشار لي بالوقوف أمام المحل و دخل بمفرده للتحدث مع مالكه. رأيته يتبادل العناق مع رجلٍ بالداخل، بدا على ذلك الرجل أنه يصغره بعدة سنوات. تحدثا معاً لفترة قبل أن يشير بإصبعه عليّ فتطلع الرجل إليّ بابتسامة ثم عادا للحديث. و بعد دقائق أشار الشيخ إليّ بالدخول ففعلت. قدمني للرجل قائلاً:

- هذا هو محمد.

ثم قام بتعريفي على الرجل:

- و هذا هو الأستاذ صالح مالك المحل. لقد وافق على أن تعمل معه.

صافحت الرجل شاكراً و واعداً ببذل قصارى جهدي. فقال:

- إذن ستبدأ من الغد. عليك أن تحضر في السابعة.

ثم سألني و هو يقلب بصره بيني و بين الشيخ:

- هل يناسبك هذا الموعد؟

- بالطبع. سأكون هنا بحلول السابعة.

و هكذا أكدت له موافقتي على العمل. و هل هناك إمكانية للرفض. إنها الفرصة التي منحها الله لي للبدء من جديد حياة شريفة أتكسب منها بالحلال.

- إذن فقد اتفقنا. أراك بالغد.

صافحه الشيخ و أعدت مصافحته ثم خرجنا من المحل. عدنا للمسجد لنصلي العشاء قبل أن نعود نهائياً للمنزل. و بعد الصلاة سرنا عائدين إلى المنزل. اتَّجه الشيخ -الذي لم أستطع سؤاله عن اسمه بعد-إلى شقته و صعدت أنا لغرفتي. و بعد دقائق طُرِق باب الغرفة، ذهبت مسرعاً لفتحه فرأيته قد أحضر صينيةً أخرى عليها طعام العشاء. تطلعتُ للطعام بخجل:

- هذا كثير!

- لا تشغل بالك بالأمر. فأنا أستغلك بتناول الطعام معك. لكن تأكد أن زوجتي ستحنق عليك.

ثم ضحك. تناولنا الطعام معاً يتآكلني الفضول لمعرفة بقية القصة. فأنا لا أعلم متى سأعود من العمل و متى سيتاح لنا اللقاء و الحديث مرة أخرى. و يبدو أنه لاحظ توتري بتطلعي بين الحين و الآخر إليه. فسألني وهو يرتشف من كوب الشاي بيده:

- تريدني أن أكمل لك القصة!

- إذا كان سيرهقك الأمر فيكفي لليوم.

عرضتُ عليه الامتناع و أنا أدعو بداخلي ألا يفعل.

- لا أبداً، مازال الليل طويلاً. لكن ذكِّرني. أين توقفنا؟

- عندما قلت أنه بلحظة تغير كل شيء.

- نعم.. تذكرت.

ثم استأنف حديثه:

- بيومٍ بدا روتينياً منذ شروق شمسه، كان يوسف كعادته غارقاً في نوم عميق بعد إحدى سهراته. و إذا به يسمع أصواتاً مرتفعة بدت كشجار. صوت رجل و امرأة، و كانت المرأة تصرخ قائلة:

- أقول لك دعني أدخل.

تجاهل الأمر في البداية فبالتأكيد سيحضر من يقوم بطردها، ما شأنه هو! و كاد يعود للنوم مرة أخرى قبل أن ينبهه عقله أن ذلك الصوت الذي سمعه ليس لأي امرأة، إنه صوت "دادة سعاد"! و كانت تلك الفكرة كفيلة بأن تنفضه من فراشه ليتطلع من زجاج شرفته يرى ما الأمر. رآها تقف أمام البوابة الخارجية للقصر و الحارس الذي امتثل لأوامر منعها من الدخول من قبل ينهرها و يدفعها بعنف للمغادرة. تصاعد الغضب بداخله تجاه الحارس حتى أنه كاد يذهب ليسبه و يفتح لها البوابة بنفسه فمن ذلك ليمنعها من الدخول ألا يعلم من هي؟! ألا يعلم كم اشتاق لرؤيتها، ابتسامتها، عطفها، و نصائحها التي نَدِمَ أنه لم يُعرها أدنى اهتمام يوماً! كاد

يخرج من مخبأه متناسياً ما قد يلاقيه منها، لكنه رأى والدته تسبقه إليهما فبقى حيث هو يتطلع لما سيحدث. سمع والدته تنهرها بقوة قائلة:

- ماذا هناك؟ لِما تصرخين هكذا؟ ألا تعلمين أين أنتِ!

صاحت بها الدادة:

- أتريدين أن تعلمي لِما أصرخ هكذا يا سيدتي الكريمة!

و أكملت بما لم يكُن في الحسبان:

- لقد ماتت شمس و طفلها أثناء الولادة! لقد ماتت طفلتي. مازلتِ تودين معرفة سبب صراخي!

و انتبه يوسف حينها لملابس الحداد التي ترتديها. مثلما انتبه أيضاً أن بإمكانها رؤيته من موقعه ذاك فخرَّ جالساً قبل أن تراه. لكن انتباهه ذاك قد أتى متأخراً فقد رأته بالفعل! وقتها حاولت باستماتة نفض يد الحارس عنها صارخةً بذلك الجالس بالأعلى:

- لقد ماتت شمس يا يوسف! أنت قتلت طفلتي يا يوسف! أتشعر بالسعادة الآن؟!

كان صراخها يخترق قلبه قبل أذنيه بقوة كادت تودي بهما معاً. حينها شعر و لأول مرة بفداحة جريمته، فانهمرت دموعه. و بقيت هي على صراخها العاجز و بقى هو على نحيبه النادم. و ماذا فعلت والدته عندها؟

لقد أمرت بكل تجبُر بركلها بعيداً كما فعلت بالمرة الماضية حينما كانت لا تزال تتشبث بها طفلتها. تلك الطفلة التي لم تعد على قيد الحياة! فبصراخها ذاك ستنبه الجيران إليهم و عندها سيبدأ الخدم المجاورون بنسج الإشاعات التي ستصل فيما بعد لأسيادهم، وقتها سيفقدون مكانتهم بذلك المجتمع الراقي، ظلت السيدة و حتى آخر لحظة تدافع بيأس عن مكانتها الزائفة حتى و لو كانت الوسيلة الوحيدة لذلك هي أن تطأ بقدمها على من لا قيمة لهم بنظرها!

أصدرت الأمر للحارس فامتثل لها يجذب الدادة من ملابسها بقوة لإبعادها عن البوابة فما كان من جسدها المُتعب إلا أن سقط أرضاً. تطلعت إليه ثم أعادت بصرها للقصر و وقفت مرة أخرى تصب جام لعناتها على الجميع ليُعاد ذات المشهد السابق برفع يديها و وجهها المغطى بالدموع داعية بصوت إنما هو نِتاج كل ما لاقته منهم:

- يارب اللهم انتقامك! يارب اللهم حق أمتك المتوفاة! اللهم برداً على قلبي.

ثم ختمت بذات الصرخة التي اخترقت طبقات السماء: يارب.

اخترق دعاؤها أذنيه فحاول بقوة صمَّهما واضعاً كفيه عليهما يخشى الاستماع للمزيد. و بينما هو على حالته تلك إذ رأى باب غرفته يُفتح لتطل

عليه ملك بملابس نومها. رفع بصره إليها فرآها تبكي دموعاً ذكَّرته بدموع قتيلته تلك الليلة. نقل كفاه إلى عينيه يغلقهما بقوة لا يريد رؤيتها فسمعها تحدثه:

– لقد أدركت الآن كل شيء يا أخي. لقد تأكدت شكوكي و أُجيبت كل الأسئلة التي كانت تدور بداخلي. لِما فعلت ذلك يا يوسف! شمس ماتت يا يوسف! و أنا لن أسامحك مهما حييت!

أبعد كفيه، حاول مدّهما إليها يريد أن يوقفها، أن يعتذر، يبكي أمامها، لكنها لم تمنحه تلك الفرصة. ألقت عليه كلماتها ثم غادرت الغرفة صافقة بابها خلفها لتنتهي فرصته الأخيرة بالحياة فيسقط مرة أخرى ببئر العذاب الذي أصبح يحيا داخله منذ تلك الليلة.

و ماذا كانت رِدة فعل والديه عن الأمر؟ فقط لا شيء يُذكر. أبديا القليل من التعاطف الزائف تجاه القتيلة و والدتها ثم بعد ذلك بدقائق مضت الحياة و كأن شيئاً لم يكُن. و استمرت الحياة كما تفعل دائما! و لم يتعظ أحد مما حدث أو يُظهر و لو تغيُراً طفيفاً في نمط حياته فالمتوفاة لم تكُن شيئاً يُذكر: الأب لاهٍ كما هو بعمله و جمع أمواله، الأم منشغلة بتسوقها وسهراتها، و الابن ضال كما كان دائماً. فقط الابنة هي من أعطت لصديقتها الراحلة قيمة فأقامت لها مأتماً.

حافظت الفتاة على نقاء قلبها و زادها نقاءً اطلاعها على أمور دينها. فبعد وفاة شمس اعتزلت والديها و أخيها الذين لم تكُن تراهم في الأساس إلا نادراً. اتَّجهت لتعلم أمور دينها فارتدت الحجاب و تعلمت الصلاة وواظبت عليها. بالطبع أثار ذلك التغير سخرية والدتها التي حاولت بشتّى الطرق ثنيها عما تفعل منددة بأنها أصبحت شاذة عن قريناتها من بنات الصديقات، لكنها لم تُلقِ بالاً و لم تنثنِ فقد كانت تستمد شجاعتها من معرفتها بصواب ما تفعل. و قد كانت الوحيدة الشجاعة في تلك العائلة! وبقيت ملك على ذلك حتى أتمت عامها الثالث عشر. فحضَّر والديها حفلةً تليق بها. و بينما كانت تُطفيء الشموع الممثلة لعمرها المنصرم إذ سقطت أرضاً تصرخ ضاغطة بكفيها على جبينها بقوة قبل أن تفقد الوعي.

التفتّ عائلتها حولها و من حولهم المدعوون. أسرع والدها لحملها ثم وضعها بسيارته و هرول بها للمستشفى و تبعهما أخوها و والدتها مُلقين بالضيوف عرض الحائط. و هناك تم استدعاء أفضل الأطباء لفحصها فالفتاة ليست بعادية فهي ابنة أحد أهم أثرياء البلاد. و حضر الأطباء و تم وضع الفتاة على طاولات الفحص، و تحاليل الدم و الأشعة، و لكن لم يستطع أي منهم تحديد ما بها عوضاً عن موضع ألمها. كلٌ يُشخص داء ومكان يرفضه الثاني و يُصِّر على داء آخر بمكان جديد.

أحدهم أقر أن المشكلة برأسها و أكدَّ على ذلك مدللاً بضغطها عليها قبل أن تفقد الوعي، و آخر أقرَّ على أن المشكلة ليست برأسها إنما بجهازها الهضمي، و ثالث ينفي بثقة تشخيص سابقيه ليعلن بفخر مهني أن المشكلة تقع برئتيها. و رابع و خامس و تختلف التشخيصات. و عندما استفاقت وتم سؤالها عن مكان ألمها لم تستطع هي الأخرى تحديده:

– كل جزء بجسدي يؤلمني بشدة.

ثم تعود للبكاء فيسقط الأمر بأيدي الأطباء. حتى التحاليل و الأشعة على دقتها لم تُظهر لهم شيئاً و الفتاة تتدهور صحتها يوماً وراء آخر. و ازداد الأمر سوءاً بتقيأها المفاجيء للدماء، ذبل وجهها النَضِر فتحول من البياض المشوب بحمرة الصحة للون شديد الصفرة. هزُل جسدها حتى برزت عظامها. و عندما أقر الأطباء بعجزهم عن معرفة ماهية علتها حجز لها والدها طائرة خاصة و أرسلها لإحدى الدول الأجنبية الشهيرة بمجال الطب. أرادت والدتها الذهاب معها لكن يوسف أبى إلا أن يذهب هو معها فتلك الصغيرة كما اعتاد مناداتها صغيرته هو و ليس هما. هو من رافقها و هي رضيعة، هو من رآها تكبر يوماً وراء آخر أمام ناظريه، هو من لبَّى لها جُل ما تمنت يوماً. هو و لا أحد آخر الأحق بالذهاب معها فلو بقى خلفها

لفقد عقله! و غادر معها متخلصاً لأول مرة منذ مرضها من داء سُكرَه. أصابها الداء فكانت هي دواؤه.

و عندما هبطا بذلك البلد أرسلها لأفضل مستشفى به، و لكن لا جديد. كلهم متحيرون، و كلهم يغرزون الإبر بكل منطقة بجسدها. حتى أصبح ذلك الجسد كالإسفنجة. جلس يوسف بجانبها يوماً و كانت هي مُغمضة العينين يبكي ما حل بها، و عجزه عن التخفيف من ألمها. وضع رأسه على فراشها و بات ينتحب. ربتت بضعف على كتفه، ماذا؟ صغيرته مستيقظة! رفع رأسه فوجدها تتطلع إليه بابتسامة ذابلة وضعت فيها القوة المتبقية بجسدها الهزيل:

- لِما تبكي يا يوسف؟ لا تبكِ أرجوك فبكاؤك يؤلمني.

جفف دموعه، ابتسم لها و اقترب يربت على كفها قائلاً:

- لا شيء يا صغيرتي. لا تُرهقي نفسك بالحديث.

- دعني أُتحدث. لربما كانت آخر مرة أستطيعها!

- ملك! لا تتحدثي بهذه الطريقة. ستُشفين و تعودين معي سالمة لمصر. أعدك أني لن أتركِكِ حينها بمفردكِ مرة أخرى. و سأبقى أتحدث معكِ حتى تصرخين طالبة مني التوقف.

ابتسمت بوهن مرة أخرى قائلة:

- يوسف! أريد أن أخبرك شيئاً بينما مازلت أستطيع الكلام!

- ماذا هناك يا حبيبتي؟

- أنا أعلم ماهية علَّتي.

- ماذا!

صاح متفاجئاً: أتعلمين مكان ألمك حقاً؟ إذن سأذهب لاستدعاء الطبيب.

كاد يذهب، فأمسكت بكفِه:

- فقط اجلس يا أخي حتى أنهي حديثي.

فجلس مرة أخرى متسائلاً:

- أين تتألمين يا صغيرتي؟

- إن ألمي لا أعلم له موضعاً فجسدي يكاد يتشقق من كثرة الآلام بداخله. لم أعد أعلم أي منطقة به لا تؤلمني لتحديد أيها يؤلمني! إنَّ ما أريد التحدث بشأنه هو سبب هذا المرض الذي يجهل الجميع على اختلاف كفاءاتهم كنهه!

- إذن ما السبب؟

- إنها شمس..

- شمس!

صرخ بها متفاجئاً ملقياً بيدها التي كانت لا تزال متعلقة به على الفراش. قرَّبت يدها منها بوهن و أكملت:

- إنها إحدى دعوات دادة سعاد للانتقام لما حدث لشمس منك. فأنا بالنهاية أحب الجميع إليك! أليس كذلك يا يوسف؟

و كأن جميع عقارب الزمان قد تعطلت عن العمل. و كأن العالم خلا إلا منه و ملك تتطلع إليه بضعف. و تذكَّر جسده تلك الرجفة التي سرت به عندما استمع لدعوات دادة سعاد يوم طردِها هي و شمس، و يوم عودتها لإخبارهم بوفاة الصغيرة. و تمثلت صورتها أمامه و هي ترفع يديها للسماء و تصرخ بألم "يارب أشعل قلوبهم كما تضطرم النار بقلبي الآن! " وهل هناك أحب إليه و أغلى على قلبه الذي يشتعل الآن من صغيرته. وانهمرت دموعه، ليته لم يحبها يوماً، ليتها ما كانت أخته. هذه البريئة التي تتألم كل لحظة تحيا كل هذا العذاب مُتحملة إثمه هو. و هو ماذا حدث له! إنه يحيا أمامها موفور الصحة دون وخزة إبرة واحدة! بكى و تصاعد نحيبه فوضعت كفها على ذراعه قائلة:

- هوِّن عليك يا أخي. ما حدث قد حدث و أنا لست حزينة لِما مررت به.

ثم ابتسمت و أكملت:

- يكفيني أني تأكدت من محبتك لي. أتمنى أن أكون أنا الانتقام الذي ستحصل عليه دادة سعاد في مقابل ألا يصيبك أي أذى.

و صمتت قليلاً ثم استرسلت:

- أشعر أني سألحق بشمس فنحن صديقتان رُغم كل ما حدث. لكن لي رجاء عندك يا أخي.

سحبت نفساً و استأنفت:

- لا تجعل موتي يذهب سُدى يا أخي. أرجوك يا يوسف ابحث عن طريقك. أثق أنك ستكون قادراً على إيجاده يوماً. أرجوك يا أخي عد لربك، استغفره يغفر لك. أنت لا تعلم أي ضريبة قد تكون التالية.

ثم وجهت وجهها للأعلى و رفعت يديها ببطء، ذات المشهد يُعاد أمام ناظريه و هو ساكن يشعر أن جسده قد تخدر، ماذا تفعلين ملك! و كانت الدعوة:

- اللهم اهدِ أخي. اللهم رد يوسف إليك رداً جميلاً. اللهم اغفر ذلاته. اللهم امنح أخي الراحة و السعادة. اللهم...

ما بالها لم تُكمل، و ما بال صوتها خبا و توقف! ماذا يحدث لكِ ملك؟! و سقطت يداها بجانبها و انقطع الصوت ليتبعه أزيز متصل من

الجهاز الموصول بجسدها.. لفظت أنفاسها الأخيرة على مرأى و مسمع منه لتكون آخر كلماتها دعاء لأخيها الذي أضحى حبها له لعنة أودت بها لحتفها. و انتهت الحياة و أسدل الستار و انطفأ النور الذي كان يضيء حياته المظلمة...

الفصل الخامس

عندما سكن الجسد الهزيل. صار يهزه في البداية برفق لتفيق من غفوتها التي سقطت بها، لكنها لم تفعل! و بكل هزة لجسدها كان ينكر ذلك اليقين المتصاعد بقلبه، يريد منحه و لو ذرة أمل واحدة بأنها مازالت على قيد الحياة. نعم هو يعلم أنها تمازحه لتتأكد من حبه لها. هي فقط تمزح! و عندما طال صمتها هرول متخبطاً بالسائرين في الطرقة لاستدعاء الطبيب، فهو القادر على معرفة ما ألَّم بها، هو من سيوقظها لأجله. و وصل غرفة الطبيب، لم يتحدث و لم يشرح بل جذبه من يده و قاده نحو غرفتها. و أشار على جسدها المسجى:

- ماذا بها؟ لما لم تعد تجيبني؟!

و أسرع الطبيب لفحص نبضها، نظر ليوسف ثم أعاد النظر للفتاة قبل أن يستدعي الممرضة طالباً منها جهاز الصدمة الكهربائية. هرولت تلبي أمره. أتته بالجهاز و أداره على مرأى من أخيها. شحنه ثم وضعه على صدرها و انتفض الجسد الصغير مرة فثانية فثالثة قبل أن يعهد الطبيب بالجهاز إلى الممرضة مملياً عليها باللغة الإنجليزية تقرير الوفاة غير آبه بذلك

الذي وقف متخشباً يتطلع لما يدور حوله بعينين زائغتين. و عندما سمعه يُملي تقرير الوفاة استفاق من سكرته، ما هذا الهراء! صاح به:

- ماذا تقول أنت!

ثم تركه و اتَّجه لجسد أخته يهزه هذه المرة بعنف علَّها تستفيق من غفوتها فتكذّب أمر الطبيب. و صرخ بها:

- يكفي مُزاحاً ملك فمزاحك أصبح سخيفاً. استيقظي يا ملك.. انظري إليّ أرجوكِ.

و لكنها لم تفعل. انحنى على جسدها يحتضنه و ينتحب و عجزت قدماه عن حمل جسده فسقط جوار فراشها متشبثاً بيدها. جلس يتردد داخله حوارهما الأخير و دعوتها التي اختصته بها و هي تلفظ أنفاسها الأخيرة. بكى مَن أحبها طوال حياته، الوحيدة التي أراد حمايتها في هذا العالم. و إلى ماذا أدَّى حبه المسموم لها! إلى ألم و عذاب و مرض عجز أطباء الأرض عن تحديد كنهه و موضعه. و في النهاية أدَّى لوفاة. لتكون أخر كلماتها بهذه الحياة دعوات صادقة تضرعت بها لربها لهداية أخيها الفاسق. حبه لها وحبها له هما سبب هذه المأساة التي مرَّا بها و التي سيبقى يحتمل تبعاتها حتى توافيه منيته.

أسندته الممرضات، فابتعد عنهن مُلقياً بثقله على حائط الغرفة يودِّع بنظرة أخيرة ضحيته الثانية قبل أن يتوارى وجهها عنه إلى الأبد. تطلع لوجهها المبتسم ثم غادر الغرفة بأمر من الممرضة لإنهاء إجراءات الخروج من المستشفى بل من الحياة بأكملها. خرج و جلس على أحد المقاعد يستجمع شتات نفسه، هاتف والده و أخبره بوفاة ملك و في نهاية المكالمة التي كانت دموعاً أكثر منها حديثاً طلب منه حجز طائرة العودة له و لجثمان الصغيرة.

و عادا لبلدهما في صباح اليوم التالي. اتَّجها للقصر داخل سيارة أرسلها والده لاستقبالهما. لم يحضر بنفسه فقد كان منشغلاً بإصدار الأوامر لإقامة عزاء مثالي يناسب مستوى العائلة و يلائم ذوق الشخصيات الهامة التي ستحضره. و كاد يوسف يبتسم في ذروة ألمه ساخراً من هذه الحياة التي تهتم بالمكانة أكثر من الشخص نفسه حتى في الموت! و لكن شفتيه لم تستطيعا فنار فقد صغيرته لا زالت متأججة بداخله ليستطيع استبدال الألم بابتسامة حتى و لو كان يعلم أنها عابثة.

و انتهت إجراءات الدفن و رأى بأم عينيه التراب و هو يوارى أخته لينفصلا إلى الأبد. لم يتفوه بكلمة منذ أن سلم جثمانها لوالده، و لم يحاول مواساة أي من والديه بحرف فمصيبته كانت أعظم، فهما و إن كانا والداها

اللذان أنجباها فهو الأخ الذي شهدها تكبر أمام ناظريه يوماً وراء آخر. وعاد للقصر فرأى الكثيرين يتوافدون للعزاء. لم يلتفت لأحد مُتغاضياً عن النظرة التي حدجهُ بها والده يخبره أنه هكذا يسبب له العار أمام ضيوفه، ولكنه أكمل صعود السلم متجهاً لغرفته و لسان حاله يخبر والده برسالة صريحة: لا يهمني أي منهم.

ولج الغرفة و أوصد بابها ثم جلس خلفه و أطلق لعينيه العنان، بكي ملك الصغيرة كما أحب دوماً مناداتها متذكراً جميع اللحظات التي مرت بهما، أكثرها عندما كانا طفلين و نادرها عندما شبَّا. و بينما هو غارق بذكرياتهما سوياً إذ سمع طرقات متكررة على الباب. تجاهل الأمر فهو لا يريد رؤية أحد بهيئته تلك. كل ما أراده أن يدعوه و شأنه مع عذاب ضميره الوليد. و لكن ما بال هذه الرغبة باتت مستحيلة! فالطارق لم يكُف و لم ييأس من إجابته. تحامل على قدميه و وقف ليفتح الباب متوعداً لذلك الذي يقف خارجه. لكنه لم يكُن رجلاً كما ظنَّ بل كانت تلك الخادمة البديلة. وقفت أمامه تلتقط أنفاسها اللاهثة قائلة:

- سيدي يوسف لقد فقد والدك الوعي و تم استدعاء سيارة إسعاف لنقله للمستشفى!

ما طرأ على ذهنه حينها: أشعرت بالفجيعة الآن أبي! إذن فقد ظلمتك عندما اعتقدت أن مكانتك و نقودك أغلى على نفسك مني و أختي. شعر بفداحة سوء ظنه فهرول لنجدة والده. وجد المُعزين قد تجمعوا حوله يحاولون إفاقته منتظرين وصول سيارة الإسعاف. أسرع نحوه يسند رأسه إلى صدره وينادیه برفق علَّه يجيب، و وصلت السيارة و نزل المسعفون منها لوضعه على الفراش المتنقل. أمسكت والدته الباكية بيده تسأله أن يهتم بوالده فهي لم تعد تعلم على من تذرف دموعها، على فقيدتها أم على زوجها الذي لا تعلم ماذا حل به فقد كان معافً أمامها منذ دقائق لتجده و دون سابق إنذار ممدد على أرضية غرفة مكتبه. توسلته أن يُعيده إليها فهي لن تتحمل فقداً آخر! ربَّت بكفه الآخر على ذراعها، أراد مواساتها و التخفيف عن قلبها و لو بكلمة، و لكنه لم يستطع! و أسرع يُحضر سيارته لِلحاق بوالده.

أدار السيارة و قبل أن ينطلق بها وجد يداً تطرق زجاج النافذة المجاور له. فتح النافذة فوجد أحد موظفي والده يطلب منه أن يذهب معه للمستشفى. وافق يوسف فاستقر الرجل على المقعد المجاور له. وكان يوسف مازال يعتقد حتى ذلك الوقت أن ما أصاب والده إنما هو نتيجة حزنه المكبوت على طفلته فلم يحاول السؤال عن سبب يعلمه جيداً!

- أتمنى ألا يصيب والدك مكروهاً!

تفوه بها الجالس بجواره لينتشله من صمته و يخفف من قلقه. فعلَّق يوسف على حديثه:

- لا أعلم لما سقط فجأة، لقد كان بخير حتى و هو يرى جثمانها. لابد أنه لم يستطع التحمل أكثر...

و نفى الرجل فكرته الخاطئة:

- كلا، الأمر ليس كما تعتقد. فقده للوعي ليس بسبب ملك!

و احتار يوسف، إذا لم يكن بسبب أخته إذن فما الذي أصابه! سأل الرجل و هو ينظر إليه بطرف عينه:

- هل هناك ما أجهله؟!

أكمل الرجل بتوتر:

- ما كان يتوجب علىّ إخباره اليوم فمصيبته عظيمة، لكن ماذا كنت سأفعل! الأمر لم يكن يحتمل التأجيل.

- تخبره بماذا؟! لفظها يوسف بنفاذ صبر.

- لقد خسرت الشركات جميع أسهمها منذ عدة أشهر فاستدان والدك من البنوك بعدما رفض أصدقاؤه و أقرباؤكم مساعدته. و عندما طال الأمر و لم نستطع الوفاء بالدين أعلنت الحكومة إفلاسنا اليوم! و بلحظة واحدة

فقدنا كل شيء! حتى المتبقي من الأملاك بالكاد يكفى لسداد الديون المتراكمة.

إذن كان الأمر أولاً و أخيراً بسبب المال! لقد كان والده يصارع وحده منذ أشهر و هم لا يعلمون عن الأمر شيء! و هذا الخبر الأخير الذي تلقاه والده كفيل بأن يودي بحياته! و ترددت دعوات دادة سعاد برأسه، و أدرك أنه السبب مرة أخرى بكل ما يحدث حوله. و توسل لله بداخله لأول مرة أن يُنجِّي والده. ثم ضغط دواسة البنزين و انطلق بأقصى سرعة.

وصل المستشفى و سأل عن والده فتوجهت بهما الممرضة لغرفة العمليات. رأى أطباء يدخلون و آخرون يخرجون. أوقف أحدهم و سأله عن حالة المريض بالداخل فهو ولده و يريد أن يطمئن عليه، فأخبره الطبيب في عجالة أنه بحالة حرجة و أن عليه فقط الدعاء ثم تركه و عاد للداخل. وانتظر هو أمام الغرفة بقلق. و مضى الوقت بطيئاً كالسلحفاة قبل أن يخرج أحد الأطباء يتبعه ذاك الذي سأله من قبل، نظر ليوسف ثم أسرَّ شيئاً للطبيب الآخر. فسأل الطبيب يوسف و هو يتطلع إليه:

- أنت ابنه؟

- نعم. كيف حاله الآن؟

أعاد الطبيب المتحدث بصره لزميله المجاور قبل أن يعيده ليوسف مجيباً:

- البقاء لله.

لفظها بروتينية أشعرت يوسف بأنه يُلقى عليه مزحة أو يسأله عن حاله! ثم ربَّت على كتفه و همَّا بالذهاب. ماذا؟! إلى أين يذهب و يتركه غريقاً ببحر تيهه! أسرع يوقفه:

- كيف هذا؟ لقد كان بخير منذ ساعات! أنت لا تكذب أليس كذلك! هل؟ هل؟

و لم يستطع لسانه إكمال السؤال الذي أدركه الطبيب جيداً فأشفق على مظهره المزري و أجابه بلين:

- لقد تُوفي جراء سكتة قلبية. في الواقع لقد لفظ أنفاسه الأخيرة بمجرد أن وصل للمستشفى و لكننا حاولنا كل ما نستطيع لنعيده للحياة. وآسف لإخبارك أننا قد فشلنا.. البقاء لله.

ثم مضى في طريقه هذه المرة يتبعه الباقون. غير آبه بذلك الكسير الذي ترك خلفه. و خرج الممرضون يقودون جثمان والده المُغطى من مقدمة رأسه حتى أخمص قدميه. و ذهب يجر قدميه للتأكد من الأمر، يتصاعد أمل كاذب بقلبه أن الجميع ربما يكونون مخطئين و سيرفع الغطاء فيكتشف أن هذا

الجسد ليس لوالده إنما لرجل آخر و أن والده بخير بإحدى الغرف و تحدث المعجزة كما كان يرى بالأفلام التي شاهدها طفلاً. و لكنه كان والده! لم تحدث المعجزة، و لم يستطع أن يحيا داخل أحد أفلامه القديمة.

تراجع بذعر للخلف، كاد يسقط أرضاً لولا يد موظف والده التي أسندته و وجهته لأحد المقاعد القريبة. وقفت أمامه إحدى الممرضات تطلب منه الذهاب لانهاء أوراق خروج جثمان والده. و أُعيد مشهد أخته المسجاة أمام ناظريه و أخرى تطلب منه الذهاب لانهاء أوراق خروجها. وكأنه ما أتى للحياة إلا ليسبب الألم و الموت لأحبائه! و كأنه ما حيا إلا ليخط بيده أوراق خروج عائلته من الحياة! و كأن الحياة توقفت من حوله! و تسابقت روحه للصعود مع أخته و أبيه. و كأنها ليلة عرسكِ يا شمس بالسماء!

توقفت عيناه عن البكاء فقد أُرهقتا مما ذرفتا فامتنعتا عن المزيد. و حلَّ محل الدموع ابتسامة ساخرة التصقت بشفتيه.

استجمع قواه و خط أوراق مغادرة جثمان والده. و طلب من الموظف الذي بقى لمؤازرته أن يهاتف والدته و يخبرها بما انتهوا إليه و سأله أن ينهي تحضيرات الجنازة الثانية فهو لديه عمل مهم يجب أن يذهب إليه. كان بالطبع يكذب فأي عمل قد يكون له بهذا الوقت و أي عمل له من

الأساس! و أدرك الموظف كذبته و لكنه تغاضى عنها بصدر رحب فيكفي الشاب ما مرَّ به من فقدين في آن واحد.

غادر المستشفى، استقل سيارته و وجهها للاوجهة.. أوقفها بأحد الأماكن المنعزلة، و تطلع حوله، و لَمَّا تأكد من خلو المكان إلا منه انفجر ضاحكاً. ضحكات مرتفعة مؤججة بلهيب صدره المشتعل تبعها صراخ ودموع حفرت لنفسها إخدوداً عميقاً على خديه! و عندما انتهى من إخراج بعض ما بصدره عاد أدراجه إلى القصر ليرسل جثمان والده لمثواه الأخير. فعليه على الأقل أن يكون ابناً بارّاً و لو لمرة حتى و لو كان يعلم أن ما حدث إنما هو نتاج جريمته المنكرة!

وصل للقصر فوجد موظف أبيه المتفانِ قد أنهى كل الإجراءات على أكمل وجه. سار مع السائرين تابعاً كفن والده. و عندما وصلوا لمقبرته أرسله بيديه داخلها. و أهيل التراب على وجه الأب و اختفى من الحياة كأن لم يكن بها دهراً. وقف يتلقي مصافحة المُعزين ناظراً لوالدته التي وقفت على بُعد مسافة منه تستند بضعف على اثنتين من قريباتها. و بعد حين غادر الجمع. و عندما أمسى وحيداً جلس بين قبري أبيه و أخته يبكي رحيلهما. شعر بيد توضع فوق كتفه، نظر للأعلى فوجدها والدته تستند عليه لتجلس بجانبه. جلست جواره و أجهشت بالبكاء تسأله قبل نفسها:

– ماذا حدث لنا بين عشية و ضحاها؟ كيف فقدنا كل شيء يا يوسف دون مقدمات؟ أختك، والدك، أموالنا، و مكانتنا! أين ذهب كل ذلك في طرفة عين؟

فيجيب أسئلتها ضحكة ساخرة منه و هو يخبرها ما تناسته:

– لا يا أمي أنت مخطئة. المصائب التي حلت فوق رُءوسنا لم تأتِ فجأة كما تزعمين! كانت هناك العديد من المقدمات لكننا تجاهلناها جميعها كما اعتدنا أن نفعل دائماً. لقد بدأ الأمر منذ أكثر من عام. أو لنقل كان ذلك منذ عام و نصف. و ها نحن نحصد ثمار ما غرسنا ذلك الوقت!

– لا أفهمك يا يوسف!

– الأمر بسيط أمي. إنها لعنات دادة سعاد التي صبتها فوق رءوسنا. وبخاصة رأسي أنا من سبب لها و لشمس الأذى و الألم.

– و ما علاقة ما حدث لسعاد بما مررنا به حتى الآن؟

– أنت تنسين كما تفعلين دائماً. و لكني سأذكرك يا أمي. ألا تذكرين دعواتها يوم طردتِها من القصر؟ ألا تتذكرين دعواتها يوم أن عادت لتخبرنا بوفاة شمس و وليدها؟ تلك الدعوات التي توسلت بها لربها أصبحت لعنات فوقي و فوق كل من يمت لي بصلة. أحقاً لا تتذكرين!

و لكنها بقيت على صمتها تتطلع أمامها. فاستأنف بعد برهة:

- لقد أثقلني الحزن يا أمي.. لقد تعبت و لم يعد بقلبي و لا بروحي ذرة يمكنها تحمل المزيد.. لقد قررت الابتعاد.

حدقَّت به، فأكمل:

- نعم سأبتعد.. سأختار المنفى حتى لا أفقدك أنت أيضاً. لو بقيت بجانبك لا أعلم ما قد يحدث لكِ.

تطلعت إليه بألم:

- تتركني يا يوسف! تركلني من حياتك بعدما فقدت ابنتي و زوجي. هل سترحلون جميعاً و تتركونني وحيدة! أنا لم يعد لي إلا أنت و رغم ذلك سترحل؟!

- اذهبي يا أمي و ابقي بفيلا جدي.. أنا أتركك لأنني و برغم ابتعادك عني كل تلك السنوات.. برغم تجاهلك لي و لأختي المتوفاة.. أحبكِ.. نعم أحبكِ و لن أتحمل رؤيتك تصابين بسوء بسببي.. لن أتحمل ألم فقدك صدقيني! أتمنى لكِ حياة سعيدة. لا تقلقي بشأني سأكون بخير.. أعدكِ.

ثم عانقها و وضع بجانبها مفتاح سيارته و غادر المقابر واضعاً يديه بجيبي سرواله تاركاً كل شيء خلفه.

سار على غير هدى، فقط أراد الابتعاد بأقصى سرعة و أطول مسافة عن أخر فرد متبقي بعائلته المنكوبة. مؤمناً بأنه اللعنة التي إذا ما اختفت ستتحسن الأمور. سار هائماً بالطرقات، يخرج من إحداها ليدخل بالأخرى غير مدرك من أين خرج و أين ولج. فقط يسير و كأن مؤشري الزمان والمكان قد توقفا بعقله منذ وفاة أخته و أبيه. و لمَّا أنهكه التعب جلس على مِقعد بإحدى الحدائق العامة. نظر حوله فوجد المكان قد خفَّت وطأة الأقدام منه فأطلق لعينيه العنان. و بينما هو في غمرة بكائه إذ شعر بيد توضع بحذر على كتفه و صوت قلق يتبعها:

- ماذا بك بني؟

و كانت تلك أول مرة يسمع بها كلمة "بني" بتلك النبرة الحانية فلم يستطع تمالك نفسه فأجهش ببكائه أكثر. أحس بذلك الرجل الذي خاطبه يجلس بجانبه قبل أن يعيد سؤاله:

- ماذا هناك؟

قرر يوسف أن يرفع رأسه و يصرفه عن جانبه. رفعها ليخبره أن يذهب و يدعه و شأنه، و لكنه لم يستطع. عندما رآه انعقد لسانه. كان يجلس بجانبه رجل أشيب الشعر يرتدي جلباباً و يستند بيده على عصا غليظة. بدا العجوز في السبعينات من عمره و اكتست قسمات وجهه المجعدة قلقاً عليه.

عندما رآه العجوز قد رفع رأسه منحه ابتسامة مطمئنة لم يستطع محوها من عقله قط قبل أن يسأله مجدداً:

- ماذا بك بني؟

و بقى لسان يوسف على عجزه فعاد لبكائه مرة أخرى. و بينما كان يبكي متطلعاً خُفية للرجل الجالس بجواره وجده ينظر لمكان قريب ثم يعيد النظر إليه قبل أن ينقله لذات المكان مرة أخرى. طمأن يوسف نفسه أن الرجل بالتأكيد ملَّ منه و أنه اقترب وقت مغادرته فليست هناك حاجة لطرده. و لكن الرجل فاجأه بقوله:

- لقد أذنَّت العشاء.. لِما لا نذهب للصلاة و بعدها نجلس سوياً ونتحدث؟

سؤال عابر ألقاه الرجل و لم ينظر لردة فعل المسئول. على الجانب الآخر عَمِلَ عقل يوسف بسرعة مكرراً عليه: أصلي! أنا أصلي! استساغها قلبه و لم يستسغها عقله. فأجاب عنه للرجل:

- و لكن أنا لا أصلي.

فنظر إليه العجوز و هو يسأله بشك:

- هل أنت مسلم؟

تطلع للعجوز مطولاً تتصارع داخل نفسه أسئلته إليه. لم يضعه أحد بهذا الموقف من قبل فلم يعنِ بالسؤال أو الإجابة. لكن الآن هناك من يسأل و ينتظر، فلا مفر. و فكر عقله: نعم أنا مسلم.. أنا من هؤلاء الذين يُطلق عليهم مسلمي الوراثة. فقط ديانة مكتوبة أسفل اسمي بشهادة ميلادي و خلف بطاقة هويتي.. و لكن دون ذلك فأنا لست مسلماً! و لَمَّا رأى نظرات العجوز مازالت مصوبة نحوه أجابه بصوت متقطع:

- نعم.. مسلم.

و كان السؤال الحتمي الذي لا مفر منه:

- إذن لِما لا تُصلي!

و فشل عقله في البحث عن إجابة هذه المرة. فهذا السؤال لم يُوَجه إليه من قبل! بحث و أعاد البحث داخله لمرات عديدة و لكنه لم يجد شيئاً. حقاً لما لا يصلي؟!

الصلاة.. تلك العبادة التي كانت معلمة التربية الدينية تعلمها لطلابها و الذي كان جزءاً منهم فقط بقائمة طلاب الفصل. فهو لم يُرهق نفسه بحضور تلك الحصة الدراسية من قبل اللهم إلا في سنوات دراسته الأولى وكان يجلس بها بنصف عقل و لم تستطع إحدى المعلمات يوماً أن تُجبره على التركيز كونهن يعلمن مكانة والده جيداً. و فيما بعد أصبحت حصة التربية

الدينية موعد هروبه و أصدقائه من الفصل. يذهبون قبل أن تحضر المعلمة لبقيتهم في الفصول الأخرى أو يتجهون للعب بفناء المدرسة. و بالطبع لم يعرف يوسف شيئاً يُذكر عن ديانته. فلا هو يتعلم بالمدرسة و لا يوجد بالقصر أحد لإرشاده. اللهم إلا دادة سعاد التي كان يراها أحياناً كثيرة تؤدي حركات الصلاة المرسومة بكتبه الدراسية عندما يذهب ليطلب منها شيئاً، لكنه لم يلتفت إليها هي الأخرى. أرادت تعليمه ذات مرة و لكنه رفض و اتَّجه للعب، و هي لم يكن من حقها أن تجبره! و شبّ يوسف على ما اعتاد عليه، لا صلاة و لا معرفة بأقل تعاليم دينه فقط يمضي نهاره بين هذا و ذاك و الليل يقضيه مع أصدقائه الذين كانوا يحيون مثله إن لم يكن أكثر!

"لما لا يُصلي!" لا زال يُعيد إلقاء السؤال على نفسه ليحصل على إجابة تُنقذه الحرج. هو فقط لم يفكر بالصلاة من قبل و لم يُرهق نفسه بسؤالها عن الأمر حتى عندما كان يرى ملك تصلي أمامه. يمكنه القول بأنه قَبِل حياته على هذا الشكل و استمر عليها دون أن يفكر بالتغير أو كانت لديه الرغبة لفعل ذلك.

نظر للعجوز نظرات خاوية، يسأل نفسه: حقاً لما لم أصلي من قبل؟! إذن ماذا يمنعني من الصلاة الآن؟ و بينما هو على تفكيره العاجز إذا بالعجوز يجذب يده قائلاً:

- هيا نلحق بالصلاة.

لكن لم تستطع قدماه التحرك و كأنما عقله يبذل ما بوسعه ليوقفه عن مجرد التفكير بالمحاولة. و عندما خشي أن يفقد سيطرته على الجسد ألهمه بفكرة أشد رعباً: أين ستذهب؟ و هل يقبل الله صلاتك أيها الفاسق و إن حاولت؟ هل نسيت ما فعلته طوال السنوات الماضية؟ أنسيت شمس؟ أم تُراك نسيت دعوات دادة سعاد التي توسلت بها إليه؟ و عندما أنهى العقل مهمته جلس بثبات على عرشه مرة أخرى فشعر يوسف بوخزة تعتصر قلبه الذي اختار المنفى سجيناً خلف ضلوعه.

أسرع يجذب يده من بين يد العجوز بقوة و تراجعت قدماه للخلف. صرخ بالرجل ماداً ذراعيه على طولهما و كأنه يريد الفرار:

- لا لن أذهب.. دعني و شأني.

ثم نكس رأسه و أكمل:

- لن أستطيع.

و أشفق الرجل على نظرة الهلع المنبعثة من عينيه، فسأله:

- لماذا؟!

أجابه بصوت متردد:

- لن يقبلني ربك.. إنه لا يريدني.. إنه يعاقبني على ما ارتكبت من أخطاء فكيف سيقبل بي!

اقترب العجوز بحذر قائلاً:

- و ما يُدريك أنه لن يقبل بك؟ و ما يُدريك أن هذا العقاب الذي تتحدث عنه بُغضٌ من الله لك؟ ألا يمكن أنه أحب عودتك ففعل بك هذا! ألا يمكن أنه يريد عودتك فأرسلني إليك؟

ثم أشار للطريق و أكمل:

- أنا يا بني لم أسلُك هذا الطريق من قبل، لكني كنت أزور ابنتي وقررت لأول مرة الذهاب من خلاله.. ثم رأيتك جالساً هنا تبكي فتساءلت عما يكون قد أصابك فأتيت إليك.. هيا يا بني أقبل على ربك.

- لن يقبل بي.

- ادعوه و سيفعل.. استغفره يغفر لك.

- رُغم كل ما اقترفت!

- رُغم كل شيء. فقط عد إليه مخلصاً بتوبتك.

ثم جذب العجوز يده ثانية فتركها له هذه المرة يريد تجربة الأمر. فسار العجوز يقوده للمسجد. نعم أراد التجربة، لما لا! لربما تمكَّن من التخلص

ولو بجزء ضئيل من العذاب الذي يعصف بروحه. ربما سيجد الراحة التي لطالما حُرم منها. و عندما وصلا أمام باب المسجد ترك العجوز يده، فنظر يوسف إليه بتساؤل فأجاب نظرته المتسائلة قائلاً:

- أقبل على ربك بنفسك. أدخل إليه بإرادتك.

فحوَّل عينيه عن العجوز لباب المسجد يشاهد المتوافدين إليه ثم أعاد بصره للعجوز يريد منه نظرة تُطمئن قلبه المضطرب، و وجدها هناك فسكن قلبه الثائر قليلاً و أصبحت له اليد العليا فأعطى الأمر لعقله بالصمت ففعل. و أسرعت باقي الأعضاء تتدافع تريد الدخول، تريد مؤازرة القلب المتألم و لِما لا فهم فقط سيجربون الأمر لن يفقدوا شيئاً! و تلقت قدماه الأمر فسارتا تحملانه لداخله. و لأول مرة يشعر بذاك الشعور، لأول مرة يشعر بسكينة تغمر جسده و عقله. دخل العجوز خلفه و أرشده لمكان و كيفية الوضوء و لَّما انتهيا ذهبا للحاق بصفوف المصلين.

أقام الإمام الصلاة فاصطف الجميع من حوله يتبعون الإمام فتحرك كما يتحركون، لا يعلم ماذا عليه أن يقول بكل حركة فقط يتحرك كما يفعلون. شعر بروحه تختنق من كثرة الدموع الحبيسة بداخلها. و عندما سجد الإمام و سجد المصلون و هو معهم أطلق لنفسه و لقلبه و عينيه العنان فأجهش بالبكاء. أراد كل جزء به التحرر من ثقل الذنوب الملتصقة

به، حتى عقله لم يقاوم هذه المرة فبكى كل ما أملاه على صاحبه من قبل. ظل ساجداً يبكي لا يعلم ماذا يدور من حوله، انفصل تماماً عن الواقع و لم يعُد إليه إلا من خلال يد تجذبه لترفعه عن الأرض. حاول الامتناع، أراد البقاء ملتصقاً بأرضية المسجد حتى توافيه المنية و هو على هذا الوضع، و لكن اليد لم تتوقف عن محاولة رفعه فأطاعها. نظر حوله فإذا بالعديد من الأعين المتسائلة تحدق به و هو لا يعلم ماذا عليه أن يفعل، و لكن منقذه كان بجانبه أنهضه ليخرجا من المسجد، لكن يوسف منحه نظرة متوسلة أن يبقيا مدة أطول فأطاعه العجوز و قاده لأحد أركان المسجد الخاوية.

تتابع المصلون بالخروج و هما جالسان بركنهما يتلو العجوز القرآن بصوت رخيم و يتصاعد من جانبه نحيب يوسف أعلى فأعلى. كان يبكي حياته، ذنوبه التي ارتكبها، إعراضه طوال تلك السنوات. بكى ملك وشمس، والده و والدته التي آثر الابتعاد عنها بإرادته. و لَّما شعر أن دموع عينيه كادت تنفذ تمالك نفسه و توقف عن البكاء. و عندما وجده العجوز قد هدأ أغلق مصحفه و أعاده لموضعه ثم التفت إليه يحدثه:

- لابد أنك مررت بالكثير.

فأومأ إليه.

- إذا كنت تريد التحدث فكلي آذانٌ صاغية. و تأكد أني لن أخبر مخلوقاً بحرف مما ستتفوه به.

نظر يوسف إليه، يود بشدة أن يخبره ليتخلص و لو بالقليل من ألمه، لكنه كان خائفاً. خشى أن يبتعد عنه الفرد الوحيد الذي مد إليه يده و هو في أحلك ظروفه. خشى الشعور بالوحدة التي ستظلل حياته إذا ذهب هذا الرجل. لكن ألم روحه كان يزداد أكثر فأكثر. نظر بتوسل للرجل ثم سأله بصوت متقطع:

- و هل إذا أخبرتك لن تبتعد عني؟

و أدرك العجوز الصراع الذي يدور بداخله فمنحه ابتسامة مطمئِنة وأخبره بما اشتاق لسماعه:

- لا تقلق لن أبتعد.

فعاجله بسؤال آخر:

- و لن تحتقرني، أليس كذلك؟!

و أجابه العجوز: لن أحتقرك..

فلمَّا شعر يوسف بالاطمئنان بدأ بسرد ما مر به طوال حياته: منذ بدأ يدرك الأشياء من حوله حتى تلك اللحظة التي رآه الرجل يبكي بها في

الحديقة. يشعر أن كل حرف يُخرجه من فمه يحمل معه جزءاً من ألمه. ثم سأله بعدما انتهى:

- ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ أرجوك أخبرني.

جفف العجوز قطرات الدموع المتساقطة من عينيه ثم قال:

- عد لربك.

- وهل حينها سأشعر بالراحة؟ هل سأشعر بزوال هذا الألم بداخلي؟

- بإذن الله.. فقط أصدق نيتك بالتوبة.

- سأعود إليه.. سأتوب و أبدأ بتعلم الصلاة و قراءة القرآن مثلك.. أعدك أني لن أعود مرة أخري لما كنته في السابق.

- و هناك شيء آخر..

- ما هو؟

- على دادة سعاد مسامحتك لتستقيم حياتك..

- ماذا!

الفصل السادس

- بالتأكيد لن تفعل. لقد تسبب بقتل ابنتها الوحيدة!

- نعم يا محمد.. و هذا ما أقرَّ به يوسف لنفسه...

"- ما هذا الذي يهذي به الرجل! ألم يستمع لكلمة مما قصصتها عليه؟!

قالها يوسف لنفسه و هو ينظر للعجوز قبل أن يُقِّر بنبرة متألمة:

- لا لن تفعل مهما حاولت.. لن تصفح عني أبداً.. ألا تكفي توبتي؟

- الله يغفر ما بحقه.. و لكن ما للبشر يجب أن يغفره البشر ليغفره الله.. عليك بذل كل ما تستطيع لتجعلها تسامحك و توقف دعواتها المنهمرة عليك.

خفض الشاب بصره واجماً. نعم العجوز يعلم أن الأمر صعب بل في الواقع مستحيل الحدوث بعد ما فعله بابنتها و وفاة الفتاة، لكن ليس هناك خيار آخر فالمرأة يبدو أنها تتوسل لربها صابّة لعناتها على تلك العائلة ليل نهار. عليه أن يُشعرها على الأقل أنه مهتم لأمرها. أنه بالفعل نادم على ما فعل بابنتها و بها. حتى و لو لم تستطع مسامحته يكفيه أن توقف دعاءها بهلاكه. أعاد بصره للشاب قائلاً:

– عليك أن تدرك من البداية يا يوسف أن طريق التوبة طويلٌ و شاق ففيه تبتعد عن كل ما اعتدت عليه من ملذاتٍ و ذنوب.. لذا عليك بالصبر و التحمل واضعاً نصب عينيك ما ستجنيه في نهايته من راحة و سكينة.. ولا تستمع لنفسك أبداً فهي ستحاول بشتى الطرق ثنيك عن السير فيه.. فلا تطعها و تعود لسابق عهدك. فقط توكل على ربك و ادعوه أن يثبِّتك دوماً على الطريق المستقيم. و بكل لحظة تشعر فيها بالعجز، بالرغبة في العودة، باليأس مما قد تلاقيه ادعو ربك أليس هو القائل [ادعوني استجب لكم]؟

استمع يوسف لكلمات العجوز ثم استند برأسه على الحائط خلفه وأغمض عينيه يفكر بنصائحه إليه. إنه محق و هو يعلم ذلك جيداً. إذا أراد أن يشعر بالراحة عليه أن يعمل جاهداً لاكتسابها، عليه أن ينسى تلك الحياة التى حياها من قبل و التي لم يجن منها سوى الألم و الأذى لنفسه و لمن حوله. و فكّر ألا تستحق دادة سعاد منه اعتذاراً صادقاً على كل ما سببه من فوضى بحياتها! نعم يعلم أنها سترفضه، ستطرده بل ربما تضربه، و لكن ألا يستحق هو كل ذلك. ما ستفعل به مهما عَظُمَ لن يكون قطرة في بحر ما فعل بها.

و تردد حديث ملك بعقله قبل أن توافيها المنيّة و كأنه أراد تذكيره بما توسلته أخته لفعله في خِضَم ذلك الضباب الذي يكتنفه: لي رجاء منك يوسف، لا تجعل موتي يذهب سدى. أرجوك يا يوسف ابحث عن طريقك و عد لربك. استغفره يغفر لك. و حدثته نفسه المنهكة بإصرار:

- لن أدع موتك يذهب سدى ملك، لقد وجدت بداية الطريق يا أختي و أعدك أني سأضع قدماي عليه و أسير به. سأعمل جاهداً لتنظري إليّ من مكانك و تفخري بي و لتعلمي أني لم أدع دعواتك لي تذهب أدراج الرياح.

فتح عينيه و اعتدل بجلسته فسأله العجوز:

- ماذا قررت؟

فأجابه بثقة:

- سأسير بطريق التوبة.

ابتسم العجوز قائلاً:

- أفضل قرار اتَّخذته بحياتك يا بني. ثبتك الله على قرارك. إذن هيا بنا.

نظر يوسف إليه متسائلاً:

- إلى أين؟

- إلى منزلي.

- لماذا !

و أدرك لأول مرة الوضع الذي بات به "مشرد بلا مأوى" فعلم أن العجوز بالتأكيد يشفق عليه، شعر بالحرج من الرجل فقال:

- لا شكراً.

- و إلى أين ستذهب بهذا الوقت؟ أم تُراك تريد العودة لسابق عهدك!

فأسرع نافياً:

- لا لن أعود أبداً. سأذهب لأي مكان ما ذنبك أنت لتحتملني بمنزلك و ما ذنب عائلتك تدخل غريب إليهم ليلاً!

- لا تقلق بشأن عائلتي فأنا أحيا بمفردي منذ وفاة زوجتي و زواج ابنتي الوحيدة. ستحيا معي حتى تستقيم أمورك. و لا تجادل فأنا لن أتركك تذهب.

و فكر يوسف: يا الله ما أكرمك! و أنا هكذا و بكل الذنوب التي اقترفتها بحقك تنزل برداً على قلبي و ترسل لي رجلاً لا يريد إلا مساعدتي. يا الله ما أكرمك! و دون أن يدري بدأت عيناه بذرف الدموع.

ابتسم العجوز مرة أخرى قائلاً:

- يكفي ما بكيت لليوم. هيا بنا.

فمسح يوسف دموعه التي انحدرت دون أن يشعر و حدَّث العجوز:

- آسف لكني لم أعرف اسمك بعد!

فضحك العجوز مجيباً:

- لقد نسيت.. يمكنك مناداتي بعم محسن.

- عم محسن.. هل يمكنني أن أطلب منك معروفاً؟

- تفضل يوسف.

- أريدك أن تؤمني لأصلي ركعتين أبدأ بهما حياتي الجديدة. آسف لإزعاجك لكني لا أعلم ماذا علي أن أقول بالصلاة.

- لا مشكلة.. هيا نجدد وضوءنا أولاً. سأصلي بصوت مرتفع و ما عليك إلا أن تردد خلفي.. حسناً؟

- حسناً.. شكراً جزيلاً لك.

ذهبا و جددا وضوءهما ثم صليا ركعتين نواهما يوسف بداية لتوبته. وبعدما انتهيا غادرا المسجد باتّجاه منزل عم محسن.

كان منزل عم محسن يقع بأحد أحياء القاهرة الفقيرة. سار يوسف بشوارع و مناطق لم يسمع عنها من قبل و بالطبع لم تتح له فرصة رؤيتها إلا بالقنوات الوثائقية. بيوت متلاصقة كان ينبغي عليها التهدم منذ عهد غابر و لكن ما باله لم يعد يشعر بالاشمئزاز كما كان من قبل! وصلا المنزل بعدما

ألقى عم محسن بطريقه التحية على كل من قابلهم. شعر يوسف في قرارة نفسه بسعادة غامرة أنه يسير بجانب ذلك الرجل الذي يحبه و يوقره الجميع بالرغم من بساطة مظهره و حقيقة أنه ربما لا يمتلك إلا ما يكفي عيشه. بعكس والده الذي امتلك كل شيء و لكنه أبداً لم يستطع الحصول على نظرة كتلك التي يرمقون العجوز بها. و تذكر عندما كان يذهب و هو صغير لوالده بالشركة. كان يسمع أحاديثاً تدور من خلفه بصوت لا يكاد يسمع، و إذا حضر الوالد تكممت الأفواه و اكتست الملامح رهبةً منه أو ربما مما قد يكون سمعه. و أدرك يوسف ما كان يدور حوله جيداً فكَرِه الذهاب للشركة فيما بعد.

و بقى والده على عهده حتى وافته المنية، ألقوه داخل قبره و ذهبوا مسرعين، بل و لم يفكر أي من أقاربهم أو حتى هؤلاء الذين فضَّلهم والده عليهم أن يعرض -ولو لمجرد العرض- المساعدة لا عليه و لا على والدته. لو كانوا سيفعلون لكانوا ساعدوا والده بمحنته قبل أن يخسر كل شيء! و لم تكتمل الخمس دقائق بعد دفنه إلا و كانت المقابر خاوية حتى أنه إن قام أحدهم بإلقاء إبرة لكان سَمِعَ صدى صوتها بوضوح. مسكينٌ والده لم يحصل على نظرة كتلك! لذلك أراد أن يكون نقيضه فأصبح الشاب المستهتر الذي يقضي نهاره و ليله في اللهو و فقط، لكن أين ذهب أصدقاء اللهو في

نكبته؟ لم يرفع أي منهم سماعة الهاتف لتعزيته في فقيديه، بالتأكيد علموا من والديهم أن عائلته أصبحت في عداد الشحاذين ففروا مما قد يصيبهم إذا اقتربوا منه! مسكين هو الآخر لم يحصل على تلك النظرة أبداً! اللهم إلا من صغيرته ملك. و التي أوقفتها وقت أن أخبرته باكية أنها لن تسامحه ما حيت، لتعيدها مرة أخرى و هي تدعو له قبل أن تُقبض روحها.

شعر بامتنان بالغ لعم محسن و هو يقدِّمه للأعين الفضولية قبل الألسن على أنه أحد أبناء إخوته جاء ليدرس بالقاهرة و هو أصرَّ على أن يأتي به من المدينة الجامعية ليحيا معه بدل أن يحيا وحيداً بمنزله. و تقبله الجميع مرحبين عندما علموا هويته المزيفة فشعر يوسف بالراحة.

صعدا للمنزل.. و فتح عم محسن الباب و دعاه للدخول، دخل يوسف متأملاً المنزل من الداخل. فبرغم بساطته و قلة الأثاث به إلا أنه كان نظيفاً مرتباً يبعث على الراحة. شعر بدفء يحيط به بمجرد أن خطى بداخله. و ابتسم عم محسن لنظرة الاعجاب بعينيه ثم تطلع بفخر لمنزله قائلاً:

- ابنتي تأتي من حين لآخر لتنظيفه. هيا لترى غرفتك.

ثم قاده لإحدى الغرف المغلقة، فتحها و أشعل ضوءها و أخبره أنها غرفته منذ هذه اللحظة. كانت هي الأخرى نظيفة و جميلة تحوي فراشاً واحداً و منضدة و ساعة حائط معلقة و دولاباً صغيراً للملابس.

أراه عم محسن باقي المنزل ثم طلب منه أن يذهب لغرفته و يريح جسده من عناء اليوم. أطاعه يوسف و ألقى عليه تحية المساء ثم ذهب للغرفة التي خصصها عم محسن لأجله. و بعدما دخل بدقائق سمع طرقات على بابها فأسرع يفتحه لعم محسن ليجده حاملاً بيده طبق ممتليء بالفاكهة وبيده الأخرى بعض الملابس قائلاً:

- تناول شيئاً قبل أن تنام فلابد أنك جائع.. و هذه يا بني بعض الملابس كنت أرتديها عندما كنت أصغر عمراً. أعلم أنها لا تناسبك و لكن فقط حتى نجلب ثياباً أخرى.

شكره يوسف بامتنان لانشغاله بشأنه فخرج الرجل مبتسماً داعياً له بتيسير أمره فأَمَّن يوسف على دعائه و أغلق الباب و بدل ثيابه ثم ألقى بجسده على الفراش و غرق بنوم عميق.

استيقظ صباح اليوم التالي على يد عم محسن تهزه برفق يطلب منه القيام للصلاة سوياً ثم تناول الإفطار. و بينما كانا يجلسان على المائدة سأله عم محسن:

- ماذا ستفعل اليوم؟

نظر يوسف إليه مفكراً ثم قال:

- سأذهب لزيارة أمي لأسألها إن كانت تعلم مكان دادة سعاد.

ابتسم له عم محسن و أكمل: وفقك الله بني..

فابتسم له يوسف.. و بعد الإفطار أعاد ارتداء ملابسه للخروج، وهو في طريقه لفتح باب الشقة أسرع إليه عم محسن يوقفه:

- انتظر يا يوسف. ثم ذهب باتّجاه غرفته و عاد حاملاً مظروفاً مغلقاً خمّن يوسف ما به، لكنه لم يفصح عن شيء حتى أكد عم محسن ظنونه وهو يمده إليه قائلاً:

- خذ يا يوسف.

- ما هذا عم محسن!

- إنها بعض النقود.. ابقها معك.

ثم اتَّجه لوضع المظروف بيده. أبعد يوسف يده ممسكاً بالأخرى يد عم محسن الممتدة برفق و قال:

- شكراً لك عم محسن..لكني لن آخذ مالك. يكفي ما فعلت وما زلت تفعل لأجلي.

ثم اغرورقت عيناه بالدموع و هو يكمل:

- أنا أبداً لن أنسى فضلك ما حييت.

حاول عم محسن محايلته:

- لا تكن عنيداً.. أنت حتى ليس معك ثمن سيارة أجرة تذهب بها لوالدتك. فلتعتبر أنه دَين رده إليّ عندما تحصل على عمل.

أبقى يوسف على ابتسامته الممتنة مجيباً:

- لا تقلق. فأنا معي ما يكفيني للآن. و عندما أحتاج بالتأكيد سأطلب منك.

ثم حرر يد العجوز و أسرع هابطاً درجات السلم. و هو يستمع لدعوات عم محسن له فانحدرت من إحدى عينيه دمعة أسرع لمحوها قبل أن تطأ قدماه الشارع. ألقى عليه البعض ممن رأوه بالأمس التحية فردها عليهم بابتسامة حتى خرج من الحارة.

و عندما خرج للطرقات الفسيحة اتَّجه رأساً لأحد محلات الساعات الشهيرة و الذي كان يتعامل معه و عائلته قبل نكبتهم. عندما رآه صاحب المحل هشَّ له فخمنَّ يوسف أن الرجل لم تصله بعد أخبار ما حدث لوالده. رد يوسف التحية ثم أدخل يده بجيب سرواله و أخرج الشيء الوحيد الذي احتفظ به من أموال أبيه "ساعة يده الثمينة". عرضها على الرجل و أخبره أنه يريد بيعها. فَهِم الرجل أنما هو يريد تبديلها بأخرى أحدث فبدأ بالتحدث عن أحدث و أرقى مجموعة ساعات يد وصلت إليه فقط بالأمس. شكره يوسف بابتسامة متهربة و أخبره أنه لن يبتاع أخرى اليوم

هو فقط يريد بيع هذه. تناولها البائع منه واصفاً مميزاتها الثمينة التي يكاد يفقدها و لَّما لم يجد لكلامه صدى نقده ثمنها. و يوسف لم يكن بحاجة منه لذلك الحديث هو يعلم قيمتها جيداً يكفي أنها كانت أخر هدية منحها له والده قبل مرض ملك. و كأنه تنبأ بما سيعترض طريق ولده فأهداه ساعة هي أفضل ما أهدى يوماً. ساعة ملأت جيبه بالكثير من المال الذي قد يكفيه لشهور إذا هو أحسن استغلاله و قد أقسم على نفسه أنه سيفعل. أدخل النقود بجيبه ثم أوقف سيارة أجرة أعطاها عنوان فيلا جده لوالدته.

أوصله السائق فنقده أجرته ثم ألقى التحية على الحارس و دخل. استقبله جده بترحاب شديد لم يخلُ من لوم على تركه لوالدته بمفردها في ظروفها هذه. اعتذر يوسف قائلاً:

- هذا أفضل لكلينا جدي. أرجوك هل يمكنك دعوتها فأنا أريدها بأمر ما.

و قبل أن يغادر جده المكان كانت قد حضرت مهرولة لاحتضانه قائلة أنها أسرعت بمجرد أن أعلمتها الخادمة بحضوره.. أجلسته و جلست بجواره تتأمله بحزن قائلة:

- لقد هزُل جسدك كثيراً يا يوسف.

- إنها فقط ليلة أمي.!

استأذن جده لبعض الأعمال، ليمنحهما الوقت سوياً. و عندما غادر تأمل يوسف والدته. لم يستطع التطلع إليها منذ صفعتها له يوم أن أخبرها بقبوله الزواج من شمس. وجدها هي الأخري قد تبدل شكلها كثيراً: هَزُلَ جسدها بشكل ملحوظ و دمت مآقيها من كثرة الدموع. شعر بالشفقة عليها، أراد الارتماء داخل حضنها، تمنى الشعور بالدفء و لو لمرة و كان يعلم أنها هذه المرة ستقبله. لكن لا لو فعل لما ستستطيع إرساله بعيداً. وهو لن يستطيع أن يفعل! و كأنها تعلم النار المضطرمة بداخله. حاولت الابتسام فخرجت ابتسامتها شاحبة خالية من الحياة و هي تقول:

- لما تحدق بي هكذا؟

حاول رد ابتسامتها و إن كان بأكثر منها شحوباً:

- ليتكِ جلستِ بجانبي هكذا من قبل و استطعت التحديق بوجهك.. لربما ما حدثت أشياء كثيرة.

طأطأت والدته رأسها تشعر الآن بفداحة ذنبها بحقه و حق طفلتها المتوفاة، و كان سؤاله المفاجيء لها:

- أمي.. هل تعلمين مكان دادة سعاد؟

صدمة اعترت جسدها فنفضته من مكانه، نظرت ليوسف متسائلة بقسوة:

- دادة سعاد.. دادة سعاد! لماذا تذكر هذه المرأة الآن يا يوسف؟ ألا يكفي ما حدث؟ لِما لا تدع الماضي فقط و شأنه؟

التفت للجهة الأخرى محاولاً السيطرة على دموعه بصعوبة قائلاً:

- و هل إذا تركته سيفعل!

و كانت نبرتها الحازمة:

- بلى. سيفعل.

- لا أمي أنتِ مخطئة. لن يفعل و لن تسمح دادة سعاد بذلك.. لن تفعل دعواتها و لن يفعل ضميري و قلبي اللذان استيقظا بعد طول سبات.. أمي قلبي لن يستطيع تحمل خسارة أخرى. لقد قررت التوبة و العودة إلى الله و الاعتذار لدادة سعاد هو الخطوة الأولى التي سأخطوها. أرجوكِ أريد عنوانها.

و عندما رنَّت نبرة الإصرار بصوته استسلمت. تعلم ولدها جيداً مهما حاولت لن يستمع إليها، أخبرته:

- لا أعلم عنوانها. كل ما أتذكره أنها عندما حضرت للعمل أول مرة أخبرتني أنها من محافظة البحيرة.

- لا تذكرين شيئاً آخر؟ أمي!

- أعتقد من إحدى قراها. هذا كل ما أتذكره بهذا الشأن. لا تنظر إلي هكذا. صدِّق أو كذّب لك مطلق الحرية!

- سأبحث عنها إذن.

- لن تجدها.. الأمر مستحيل.. و إذا حدث المستحيل و وجدتها ماذا ستفعل يوسف؟ هل ستعتذر! أنت يا يوسف!

يعلم جيداً ما ترمي إليه والدته. هو لم يعتذر لمخلوق من قبل أياً كان. لكن هذه المرة ليست كأي مرة. هو على استعداد أن يمنحها آلاف بل مليارات الاعتذارات إن شاءت و لكن هل ستقبل هي اعتذاراته الواهية؟!

- سأجدها أمي. و سأفعل أي شيء حتى تغفر لي خطيئتي مع ابنتها.

ثم نهض مودعاً. أوقفته والدته بمنتصف طريقه للخارج:

- انتظر يوسف سأجلب لك بعض المال.

- شكراً أمي. لدي ما يكفيني.

- ألا يتآكلك الفضول لمعرفة أخر تطورات إفلاس أبيك!

أكمل دون أن يلتفت إليها:

- كلا.

و لكنها أبت إلا أن تكمل:

- والدك -بحسب حديث موظفيه- لم يترك لنا شيئاً في النهاية.. لقد ترك شركاته غارقة بالديون. حتى القصر الذي كنا نحيا به سيُباع لتسديد ديون البنوك.. بماذا كافئني والدك يا يوسف بعد كل تلك السنوات التي عشتها معه! لا شيء.. و لا حتى مليماً أبتاع لنفسي به طعاماً!

ابتسم يوسف لنفسه بسخرية مجيباً:

- يكفي مكافآته لكِ طوال مدة زواجكما.. لا تتحاملي عليه كثيراً أمي. يكفيه ما مر به في حياته و موته.

ثم أكمل طريقه للخارج مُكملاً قبل أن يغلق باب الفيلا:

- أرجو منك الاهتمام بصحتك جيداً حتى لقائنا القادم.. إلى اللقاء.

و أغلق الباب خلفه. و تهاوت هي بعد ذهابه على أقرب مقعد تشكو لوالدها الذي حضر يسأل عنه عندما سمع صوت غلق الباب من تصرفاته قائلة:

- أرأيت أبي كيف أصبح يوسف؟ هذا ليس ابني الذي أنجبته و ربيته كل تلك السنوات.

ليجيبها والدها بهدوء:

- اتركيه ليس يفعل ما يشاء.. لكن ألم يخبرك أين يعيش و مما ينفق؟

- لم أسأله عن المكان و عندما عرضت عليه النقود أخبرني أن لديه ما يكفيه.. هو ليس متفرغ لأحد الآن فهو منشغل بالبحث عن سعاد! أخبرني أنه يريد الاعتذار منها.. أرأيت أبي؟ أخبرتك أنه ليس يوسف ابني.

نظر الجد للباب الذي خرج منه بحزن داعياً من أعماق قلبه أن يُنزل الله السكينة على قلب حفيده الحبيب، و أجابها:

- هذه أول مرة أشعر بها أن يوسف حقاً قد أصبح رجلاً يستطيع مجابهة الحياة.

و لم يلقى حديثه استحساناً لدى ابنته التي غادرت المكان ساخطة على ابنها و تشجيع والدها له.

الفصل السابع

و استقلَّ يوسف سيارة أجرة عاد بها لمنزل عم محسن. صعد درجات السلم ثم وقف يطرق الباب طرقات متتالية، و لكن لا مجيب. فجلس على إحدى درجات السلم ينتظر مُطمئِناً نفسه أنه ربما قد ذهب لبعض مشاغله. و بعد مرور فترة من الوقت - ربما ساعة أو أكثر لم يعلم تحديداً- سمع خطوات وئيدة تصعد الدرج. وقف ليرى القادم فوجده عم محسن يحمل بيده بضعة حقائب بلاستيكية. أسرع لحملهم عنه. فشكره العجوز مربتاً على ظهره ثم سأله بقلق إن كان قد انتظره طويلاً!

- كلا.. لقد وصلت منذ قليل.

لم يُرد أن يُشعره بتأنيب الضمير. و لكن رغم ذلك اعتذر العجوز عن إغفاله بإعطاء نسخة من مفتاح الشقة له. أخرج عم محسن المفتاح و أداره بباب الشقة ثم دخل مُسمياً يتبعه يوسف. وضع يوسف الحقائب على المائدة ثم اتَّجه لغرفته لتبديل ثيابه.

- أين تذهب؟ خذ أشياءك معك.

- أية أشياء!

ثم نظر مستفهماً للحقائب التي وضعها للتو:

- هذه الحقائب لي!

- بالطبع.

عاد ينظر داخل الحقائب. و لدهشته وجد مجموعة متنوعة من الثياب من كل ما يمكن أن يحتاج إليه. و عندما انتهى من فحصها التفت لعم محسن متسائلاً:

- لِما كل هذه الثياب؟

- لترتديها بالتأكيد.

ثم اتَّجه يقف بجانبه بينما يكمل يوسف بخجل:

- لكن عم محسن...

- ليس هناك لكن لقد ابتعتهم و انتهى الأمر. كما أن صاحب المحل أخبرني أنه لن يقبلهم مرة أخرى مهما حاولت.. ثم ابتسم مكملاً:

- تريدني أن أخسر نقودي!

تطلع يوسف إليه بعينين دامعتين:

- أنفقت أموالك على شراء ملابس لشاب لا تربطك به أي صلة! شاب أخبرك ما يكفي لجعلك تنفر من مجرد النظر إليه!

نظر عم محسن له بعطف:

– لِما سأنفر منك يا يوسف؟ الله يغفر يا بني و لا أحد منا يعلم ما يخبئه له القدر.. من أنا يا بني لأحكم عليك بالجنة أو النار! لا يا بني.. ما نحن إلا بشر بكلٍ منا ما يكفيه من ذنوب لينبش بحياة غيره و ينصّب نفسه قاضياً عليها! ربك غفور رحيم.. لا تيأس من سؤال رحمته أبداً مهما حدث.

ثم ابتسم مستأنفاً:

– و لا تُغَّير الموضوع الذي نتحدث به. هيا اذهب و ارتدي ثيابك لأرى إن كانت تناسبك. فقد سألت المساعدة من شاب يقارب هيئتك كان يسأل عن شيء ما داخل المحل! جعلته يقيس كل الثياب. و المسكين لم يستطع رفض عجوز مثلي...

و انقطعت الكلمات داخل عناق مفاجيء منحه الغريق لليد الوحيدة التي امتدت لانتشاله من بين أمواج التيه و الألم. و لا زالت بكل لحظة تدعمه و تقدم له العون و تربت برفق على قلبه المنهك. حضن منحه يوسف لعم محسن دون أية مقدمات. فقط شعر أنه يريد الارتماء بين هذين الذراعين. آمن أن الشعور داخلهما مختلف. و قد كان! كانت ذراعاه دافئتين و تنتهيان بكفين أكثر دفئاً ربتتا برفق على قلبه قلب ظهره. و سمع بقرب أذنه صوت يخاطبه بهدوء:

- أنا حقاً بِتّ أعتبرك ابني الذي لم أنجبه يا يوسف. و أعلم أن داخلك خيراً لكنك فقط بحاجة للتنقيب عنه. مثلما أعلم أنك ستجده يوماً فتضحى حياتك أكثر إشراقاً و سعادة عما هي عليه الآن.

"بني!"، تلك الكلمة التي لم تخترق أذنه بتلك النبرة الحانية إلا من بين شفتي عم محسن جعلته يشدد ذراعيه أكثر علَّه يصل للأمان الذي يرجوه. ربت العجوز مجدداً على ظهره قائلاً:

- هيا اذهب و ارتدي ثيابك الثياب لأرى كيف تبدو عليك.

فابتعد يوسف دون أن ينظر إليه خشى أن تفضحه عيناه إن فعل. حمل الحقائب و اتَّجه لغرفته لتنفيذ طلب عم محسن.

و في صباح اليوم التالي و بعد أن انتهى يوسف من صلاته و إفطاره ارتدى ثيابه الجديدة و استعد لبدء رحلته للبحث عن دادة سعاد. ودَّعه عم محسن وداعاً حاراً و أعطاه قصاصة ورقية بها رقم هاتفه:

- هذا رقم هاتفي احتفظ به و عندما تصل هاتفني لأطمئن عليك.. لا تنس يوسف! و قبل أن أنسى.. هذه نسخة من مفتاح المنزل أبقها معك.

- لا داعي لذلك. فأنا لا أعلم متى سأعود.. و بالتأكيد ستكون بالمنزل وقت عودتي.

- يا بني أطعني و خذه.. لا أحد يعلم ما الذي يخبأه لنا الغد.. لقد أخبرت ابنتي و زوجها عنك.. بالطبع لم أخبرهما بما قصصته عليّ فقد وعدتك ألا أتفوه به لأي كان. فقط أخبرتهما عن حاجتك للإقامة معي وأوصيتهما إذا حدث شيء لي أن يتركا لك المنزل حتى تتدبر أمورك. و أنا أثق أنهما سيفعلان فلا تقلق بهذا الشأن. خذ المفتاح معك و عد وقتما تشاء فأنت مرحب بك دوماً.. و لا تُثقل على قلبك يا يوسف.. إبذل ما بوسعك لتتقبلك تلك السيدة فربما تغفر لك يوماً لا أحد يدري.. و اعلم أن الله ما أنزل عسراً إلا أتبعه بيسر حتى أنك تتعجب أن مررت بعسرٍ قبله. فقط ادعو ربك و اثبت على طريقك و سيكون الله خير عونٍ لك.. وفقك الله بني و أراح قلبك.

- لا حرمني الله من كلامك المشجع عم محسن.. أعدك أني سأفعل كل ما أخبرتني به.

ثم اتَّجه إليه و أخذ المفتاح. عانقا بعضهما مودعين. و حمل يوسف حقيبته قائلاً:

- أراك قريباً بإذن الله.. أرجو أن تهتم بنفسك حتى نلتقي مرة أخرى.

أومأ العجوز له بابتسامة مجيباً:

- سأفعل بني.. إلى اللقاء.

ثم غادر يوسف المنزل متجهاً إلى المجهول. لا يعلم إلى أين يذهب أو ماذا عليه أن يفعل. كل ما كان يعلمه جيداً أن عليه الاعتذار بقلبٍ صادق اكتشفه مؤخراً للمرأة التي دمر حياتها و سلبها حياة صغيرتها. و استقل العربة المتجهة لمحافظة البحيرة متطلعاً للطريق من النافذة بجواره. و بكل متر سارت به السيارة شعر بمرور يوم كامل! خشى اللقاء.. أراد الهروب.. حتى أنه فكَّر بالخروج من السيارة و العودة لكنف عم محسن و ليبدأ حياته من هناك. و لكن ماذا سيحدث حينها؟ سيستمر بعذابه و ستستمر دعوات دادة سعاد بالنيل منه و ممن يَمتّون له بصلة. أغمض جفنيه و أراح رأسه على مقعده علَّ عقله يتوقف عن التفكير و لو للحظة! و نجح بصعوبة بالغة بذات الوقت الذي نبأهم به السائق بسلامة الوصول فترجل من السيارة تابعاً الآخرين.

وقف بجانب السيارة حائراً ينظر حوله لا يعلم ما هي خطوته التالية. أين يجب أن يذهب ليعثر عليها؟ و سأل نفسه مرات عديدة قبل أن يهديه عقله للتجربة و سؤال أحد السائقين علَّه يخرج منه بمعلومة تفيده أو مكان يذهب إليه. و اتَّجه لأحدهم و قد كان يبدو بالخمسين من العمر. اختاره بعناية فربما يعرف ما يجهله غيره من الشباب الحَدِث:

- إذا سمحت!

لفت انتباهه إليه ثم أكمل:

- أنا غريب عن هنا و أريد معرفة مكان أحدهم ماذا عليّ أن أفعل؟

- مرحباً يا أستاذ.. أخبرني لربما كنت أعلم من هو. فأنا أعرف الكثيرمن السكان هنا.

- في الحقيقة إنه ليس رجلاً. إنها امرأة و تُدعى "سعاد عبد الكريم فوزي" أتعرفها؟

- سعاد عبد الكريم.. سعاد عبد الكريم.. يا محمود.. أتعرف امرأة تُدعى "سعاد عبد الكريم"؟

خاطب سائق آخر أصغر سناً. ثم نظر ليوسف و قال بثقة:

- محمود هذا يعلم كل شيء.

و اتَّجه محمود ذاك إليهم ببصره. كان شاب عشريني بدرجة تقترب من نهاياتها. له نظرة ثاقبة و ابتسامة سَمِجَة لم يرتح إليها يوسف، و تسائل:

- سعاد عبد الكريم؟! أتقصد سعاد تلك التي كانت تعمل "خادمة بمصر"؟

أجابه يوسف مسرعاً فرحاً بدنو اللقاء:

- نعم هي.. أتعرف مكان منزلها؟

- أنا أعرفها لأنها كانت تقطن بقريتي.. و لكن الحمد لله أن أزاحها من القرية.. نجانا الله من أمثالها.

ثم تطلع ليوسف يحاول سبر أغواره:

- لكن لما تسأل عنها يا أستاذ؟

و لكن سؤال السائق الأكبر سناً وفَّر على يوسف عناء التفكير برد:

- لماذا؟ ماذا فعلت هذه المرأة؟

- ألا تذكُر يا عم خليل! تلك سعاد التي أخبرتك يوماً أن أهل البلدة طردوها بعدما ماتت ابنتها الصغيرة و هي تضع مولودها.. تلك العاهرة الصغيرة!

- تلك الزانية التي حملت سِفاحاً! نعم أتذكر. لكن ماذا نقول إنها تربية امرأة هجَّت من بلدها عندما ركلها زوجها.. ماذا تنتظر منهما غير ذلك!

و أضحى يوسف على وشك الانفجار. و لكن بركان غضبه خمد رويداً رويداً و هو يتذكر ذنبه العظيم.. خمد و هو يُذكّر نفسه بأن كل هذه الإشاعات التي تأكل شرفهما إنما هو مؤججها و المشرف عليها. شعر بالتضاؤل، واحتقر نفسه أكثر من احتقاره لهذين اللذين يخوضان بعرضها

وابنتها دون أدنى إحساس بالخجل أو المروءة. و أخرجه من أفكاره صوت محمود ذاك:

- يا أستاذ! يا أستاذ! لم تخبرنا من أنت و ماذا تريد منها؟

- أتعلم إلى أين ذهبت؟

- لا و لا أريد.. أبعدنا الله عن هؤلاء.

ثم أبعد وجهه مبتسماً بسخرية.

سيذهب و سيبحث عنها بنفسه دون الحاجة لهذين. اتَّجه لمغادرة الموقف و لكن أبت نفسه إلا أن تثأر و لو بكلمة لتبرأة شرف ضحيته:

- أنتما لا تعلمان ما مرتا به لتطلقا عليهما هذه الإشاعات القاتلة.. نصيحة مني لا تخوضا بعرض أحد. كل منكما لديه من النساء من قد يُقتل في سبيل حمايتهن من إشاعة كتلك التي تطلقانها.

صرخ به محمود:

- و ما شأنك أيها الغريب؟ أم هل تُراك أنت الذي أغويت الفتاة!

- لا شأن لك بي.. إنها فقط مجرد نصيحة.. فعِرض النساء ليس بالشيء الذي تلوكه الألسن.

- أقسم بشرفي أنك من أغوى الفتاة.

غادر المكان و هو يستمع لصراخ محمود به جامعاً من حوله بقية زملائه. لو كان انتظر قليلاً لحدث ما لا يُحمد عقباه! سار لمقهى قريب جلس على مقعد به. يريد تهدأة روحه و ترتيب أفكاره قبل أن يفكّر بالخطوة التالية. جلس ساخطاً على محمود ذاك ألا يكفي أنه بعد كل ذلك القذف لم يخبره باسم بلدته لربما كان أهلها يعلمون إلى أين آلت. حضر له فتى المقهى يسأله ماذا يشرب فطلب فنجاناً من القهوة. و عندما عاد الفتى حاملاً الفنجان سأله يوسف و هو ينقده بعض الجنيهات بيده:

- شكراً لك.. هل تعلم سائقي هذا الموقف؟

نظر الفتى بسعادة للنقود التي حصل عليها و أجاب على الفور:

- بالطبع فأنا أعمل هنا منذ سنوات. حتى أني أعلم الكثير عمن يقيم هنا و من يقطن بأماكن أخرى.

شعر يوسف بالأمل يتخلله. لربما أجاب هذا الفتى سؤاله:

- إذن هل تعلم سائقاً يدعى محموداً شاب يبدو في نهاية العشرين. متوسط الطول...

- نعم أعرفه.. ليس هناك إلا محمود واحد في الموقف.

ثم ابتسم ليوسف ابتسامة تخبره ألا داعي للوصف فليس هناك المزيد منه.

- حسناً.. أتعرف اسم بلدته؟

- بالطبع.

ثم أملى على يوسف اسم البلدة و كيفية الوصول إليها و هو يرتشف قهوته. أنهى يوسف قهوته و نقد الفتى ثمنها ثم شكره مجدداً و غادر المكان متجهاً للبلدة التي أخبره عنها.

و وصل يوسف البلدة المنشودة. كانت قرية صغيرة تتراص بيوتها جنباً إلى جنب فتشعرك بقوة الصلة بين قاطنيها. ترجل بها يسأل عن دادة سعاد. كان يتجه للمنزل فيطرق بابه و يخرج له أحدهم أو إحداهن فيعطيه الاسم و الوصف و ينتظر. و ينظر له المسئول بريبة ثم ينفي معرفته بها و يغلق الباب دون كلمة أخرى. منزل ثان فثالث فرابع و هي ذات الإجابة التي يحصل عليها: لا نعلم عمن تسأل! ثم نفس حركة إغلاق الباب بوجهه.

ظل يسأل حتى غربت شمس اليوم الأول. ففكر بنفسه ماذا سيفعل وهو ببلد غريب لا يعرف به أحد و لا أحد يعرفه. أين سيمكث و ماذا سيأويه! بحث لنفسه عن غرفة يؤجرها، لكنه لم يعثر على شيء فأصحاب القرية لا يؤجرون لأحد و لا سيما إن كان غريباً مجهول الهوية! و بعد أن أضناه البحث نجح بتأجير غرفة على سطح أحد المنازل بعدما عرض على صاحبها الكثير من المال داعياً في قرارة نفسه أن تستحق الغرفة هذا المال

بنهاية الأمر. و لكن كلا إنها لم تكن تستحق عشرة جنيهات حتى! هذا ما أخبر به نفسه و هو يتطلع للغرفة بخيبة. كانت تحتوي فراشاً مُهلهلاً و موقد عفا عليه الزمن و باب متكسر عندما دفعه كاد يسقط كاشفاً عن خلاء يرفل بالأتربة. و لكنها الحاجة ماذا يفعل! قبلها مضطراً محاولاً إقناع نفسه أن كل شيء سيكون بخير فقط فليعتبرها مكاناً يأويه من برد الطريق و أعين الفضوليين. أخرج النقود من جيبه يعدها وجدها نقصت الكثير، شعر أن المال يتسرب من بين يديه. عليه أن يكون أكثر حكمة في إنفاقه. هذا من قاله لنفسه و هو يحاول تنفيض الغبار عن الفراش و تنظيف الغرفة ليستطيع البقاء فيها. بدَّل ملابسه و أقام ما فاته من صلاة دعا الله بها أن يعثر على دادة سعاد ثم ألقى بجسده على الفراش.

و عندما استيقظ مرة أخرى كان الصباح قد حلّ. صلَّى ثم أعاد ارتداء ملابسه و خرج يكمل بحثه. منازل أخرى طاف بها و لكنها ذات الأجوبة: "لا نعلم".. "أعاذنا الله".. "من هي سعاد تلك! " و يمضي اليوم كسابقه ويوم ثالث و رابع و لا تقدم بأمره. تختلف المنازل و يتطابق رد الفعل: إدعاء الجهل و غلق الباب. حتى كاد يتيقن في النهاية أنه أخطأ البلدة بالتأكيد. لكن هو يتذكر جيداً أن محمود ذاك قال أنها كانت تحيا ببلدته قبل أن يقوم أهلها بطردها بعد موت شمس كونها لا تستحق العيش بين أشرافها بعدما

جلبت لهم العار و غضب الله.. و فتى المقهى بدا متأكداً و هو يخبره عن مكان إقامته.. و حتى أنه رأى محمود ذاك مرة دون أن يلاحظه الآخر فعلم أنه بالمكان الصحيح. إذن ما الخطأ؟!!

و عاد لغرفته بالمساء منهك القوى مُثقل الفكر. أحس بيأس يتملك قلبه. إلى أين تُراها ذهبت و لماذا ينفي أهل البلدة معرفتهم بها! لا أحد ولا حتى واحد آمن بها و صدَّقها! الكل تعاون على طردها! تملك اليأس قلبه فهل تراها تحقق المستحيل و تسامحه بعد كل ما واجهت بسببه! يا له من أناني لا زال يفكر بنفسه متجاهلاً ما حلّ على رأسها بسبب حماقته. و سأل نفسه: هل لو كنت مكانها كنت سأفعل! أكنت سأسامح من دمر حياتي بهذا الشكل؟! لا لم أكن لأفعل! أسئلة و أجوبة ألقاها على نفسه عززت بداخله يأساً كاد يوصله للانتحار الذي أصبح يفكر به جدياً هذه الأيام. هو فقط سيموت و لن يخشى شيئاً بعدها. و سيكون قد اطمأن على سلامة الجميع بعد أن يخرج من حياتهم. لكن لا فهناك صوت ملك يتردد بعقله يعيده للحياة. تخبره ألا ييأس. أن يصبر. و يؤمِّن على تشجيعها له ابتسامة عم محسن و أمل بأن يعود و قد أصلح ما يستطيع إصلاحه.

و عاد بصيص من الأمل ينمو بقلبه. نعم هناك شك بنسبة تسع وتسعون و تسعة من عشرة بالمائة أنها ستطرده، سترفضه بكل ما أوتيت من

قوة. و لكن تبقّى واحد من عشرة يخبره بأنها قد تقبله! و نازعه ذاك الواحد المتبقي متعللاً بغفران الله و رحمته التي وسعت كل شيء فهل يطرده منها وهو العائد النادم الطامع بغفران الله له! حاشاه يفعل و قد أنزل برداً على قلبه بعدما كاد يلحق بأخته من فرط حزنه عليها و بعدما فقد كل شيء بعد وفاة أبيه. الله هو من أرسل إليه عم محسن في أحلك لحظات حياته ليخبره أنه لازال هناك أمل عليه أن يتشبث به. الله هو من أذِن له بالصلاة و أحاطه برحمته. حاشاه يطرده منها. فليؤمن إذن بذاك الواحد المتنازع و لينازع معه وليبحث عن دادة سعاد. من يعلم لربما أرسله الله إليها في هذا الوقت لأنها بحاجته مثلما أرسل إليه عم محسن و هو بأشد حاجته إليه.

و في صباح اليوم الخامس صلَّى ثم خرج من الغرفة يكمل بحثه.. واستمر بطرق الأبواب لكن لا جديد. نفس ما حصل عليه بالأيام الأربع الماضية: إنكار و إعراض و نظرات نافرة. لكنه لم ييأس فقد انتعش الأمل بقلبه بالأمس و عاهد الله قبل نفسه أن يستمر ببحثه. قاربت شمس اليوم الخامس على المغيب و لا جديد. رفع يده المُتعبة من طرق الأبواب و دعا الله مثلما يدعو بكل صلواته:

- اللهم يسر أمري.. اللهم يسر أمري.

ثم أكمل بحثه. باب آخر فثان ثم باب ثالث طرقه ثم انتظر الإجابة.. فتحت له عجوز بالكاد تستطيع الوقوف بانحنائة كبيرة بظهرها مستندة على عصا غليظة. ألقى عليها السلام. ثم أعطاها الاسم و الوصف كما يفعل بكل مرة و انتظر إجابتها النافية. لكنه وجدها تمد رأسها قليلاً للخارج وتنظر حوله ثم أمسكت بذراعه و أدخلته منزلها مغلقة الباب عليهما.

بالطبع أثارت رِدة فعلها تلك ريبته لكنها أيضاً ألقت داخل نفسه أملاً. فتلك أول مرة يفعل أحدهم هذا بالتأكيد لديها ما تود إخباره به. أغلقت المرأة الباب و وقفت تتطلع إليه رافعة رأسها لأعلى حتى تستطيع رؤيته. لا ينكر أنه كان امتلك طولاً لا بأس به. تطلعت بعين ثاقبة من رأسه حتى أخمص قدميه محاولة سبر أغواره

– من أنت؟ و ماذا تريد من سعاد؟!

فاجأته بسؤالها. فقد اعتاد أنه السائل و أنه أيضاً من لا يجد صدى لأسئلته. مفاجأة أمست صدمة تعصف بكيانه. ماذا عليه أن يخبرها. لم يفكر بهذا الأمر من قبل لأنه بالطبع لم يعتقد أن أحداً قد يسأله عنه. و لن ينكر فضل عقله عليه في هذا الموقف. فقد عمل بجد لإخراجه من هذه المحنة والشكر لله حصل على إجابة تجنبه من المتاعب التي قد تلاحقه إذا عرَّف عن

نفسه. فالبلدة كلها تعلم ما حدث للفتاة و الله وحده يعلم من أخبرت سعاد عن حقيقة الفاعل قبل ذهابها! فليتنكر عن نفسه إذن و يمنحها هوية مزيفة:

- أنا عامل بالقصر الذي كانت تخدم به أحمل لها بقية مرتبها الذي لم تحصل عليه عندما غادرت.

إجابة بدت سخيفة خاصة بعد مُضي حوالي عام و نصف على مغادرتها للقصر، لكنها ستمنحه أماناً لا بأس به. و حملقت به المرأة متسائلة:

- ذلك القصر الذي كانت تخدم به هي و ابنتها؟

- نعم.

- لعنة الله على كل من به! و هل تذكّروا نقودها الآن! لعنة الله عليهم أجمعين.

لعنات متواصلة صبتها العجوز عليه و على جميع أفراد أسرته. لم يقبض قلبه في وسط تلك اللعنات إلا اشتراك شقيقته و والده بها و كأنها كتب عليهما الألم أحياء و أموات بسببه هو! أرادها أن تتوقف، و لكن ماذا عليه أن يقول و كيف يدافع، فأي كلمة ستفضح هويته و يؤكد لتلك العجوز نظراتها المتشككة بشأنه و التي لا تزال ترمقه بها. فأي إنسان يمتلك و لو جزء ضئيل من الضمير لن يوقفها بعد كل ما حدث للمرأة و ابنتها.

حاول بصعوبة تجميد ما يعتمل بصدره حتى لا يظهر جلياً على صفحة وجهه. و صمت مستمعاً و لم يعلق بحرف. و اطمأنت المرأة له قائلة:

- تفضل يا بني.. اجلس.. فما ذنبك و أنت فقط مجرد رسول لهؤلاء!

أشارت له على إحدى الأرائك و لمَّا جلس جلست على أخرى مقابله لتستطيع رؤيته بوضوح. و تفنن بتنميق كذبته و هو يشعر بنظراتها تخترقه:

- لقد أمرتني السيدة بإعادة نقودها.. و ما عليّ إلا تنفيذ رغبتهم.

- صدقت بني. و أنا سأخبرك عن مكانها فقط لأنك عانيت كثيراً بالبحث عنها.

نظر لها بتساؤل، فأومأت برأسها تجيبه:

- بلى.. لقد رأيتك تبحث عنها طوال الأيام الفائتة مثلما رأيت تنكر أهل البلدة لك و تبرأهم منها.. هؤلاء الأنذال! الآن ينكرونها و هم الذين لطالما سألوها أن تعطيهم مالاً أو أن تساعدهم بعمل! وتلك المسكينة لم تَرُد أحدهم يوماً! و عندما ضعفت أعرض الجميع عنها بل و ساعد بنهش عرضها هي و ابنتها - رحمها الله -.. و لم يكفهم ذلك بل أمروا بطردها من البلدة و قلَّبوا الأنفس عليها حتى غادرت تجر أذيال الخيبة و الذل! هؤلاء الملاعين! و كأنهم يطردونها من الفردوس! أعاذنا الله من شرورهم.

و لم يعلم بما يجيبها فهو و عائلته من هؤلاء الذين تستعيذ بالله من شرورهم! لم يملك إلا أن أومأ برأسه. و باغته سؤالها:

- أتعمل أنت الآخر لدى هذه العائلة؟!

تلعثم لسانه مجيباً:

- بلى.. لقد أخبرتكِ من قبل...

- نعم. نعم.. لكن أخبرني كيف يحيون بعد كل ما اقترفوه من آثام بحق الضعفاء! حدثني عنهم.

- لم تَعُد هناك حياة.. فقد تشتت شمل الأسرة: الأب مات بسكتة قلبية بعدما خسر كل أمواله.. و الابنة الصغرى تُوفيت بمرض عجز أطباء الأرض عن معرفته.. و الابن الآثم ضال في البلاد.. و الأم مُثقلة الفؤاد تفرقت عائلتها بلحظة.

أخبرها و هو يرى شريط الذكريات يمر أمام عينيه.

- هكذا أفضل.. جميعهم يستحقون ماحدث.. و لكن القاتل مازال حراً طليقاً!

و علم أنها ما قصدت بالقاتل إلا هو! ضاق صدره و عجز لسانه عن الرد. نعم هو يعلم أنه لم ينل عقابه بعد، و لكن ألا يكفي ما يرفل به من عذاب. كاد يبكي، أراد أن يصرخ بها أن "كفى!". و يسأل نفسه لماذا بعد أن

تاب مازال يتألم! لماذا يستمر الجميع بصب لعناتهم عليه! نهض من مجلسه واستعد للذهاب. فليأتِ إليها بالغد فقد ضاق صدره و يخشى أن تخونه دموعه الحبيسة. و لكنه سمعها تسترسل بعد أن أعادت رأسها للوراء:

- أنا في العادة لا أتمنى الشر لأحد بني! لكنك لم ترَ سعاد يوم أن حضرت إليّ تخبرني أنها فقدت كل شيء.. الابنة و العمل و مصدر الرزق! أنت لم ترها حينها و أنا ببصري الضعيف هذا رأيتها بوضوح.. بالكاد كانت تستطيع سحب قدميها لتسير جارَّة وراءها أذيال الخيبة و الذل متمثلة في صغيرتها التي حاربت الحياة لأجل أن توفر لها حياة كريمة.

و جلس يوسف مرة أخرى مطأطيء الرأس و خانته دموعه فتقاطرت بصمت و هو يحاول جاهداً مسحها لكن لم يستطع وضع حد لها. ربما إلا باكتشاف أمره الذي تفنن بإخفائه!

- لجأت إليّ كطفلة الصغيرة ترتمي بحضني.. لطالما اعتبرتني الأم التي ماتت و هي طفلة لم تتعد العشر سنوات.. قصَّت عليّ كل ما مرت به.. يومها صببت لعناتي على تلك العائلة.. يومها احتقرت المال و السلطة التي تطحن الضعفاء بين رُحاها.. لو كنت رأيتها ذلك اليوم لكنت أنت أيضاً صببت لعناتك عليهم.. ثم ماذا؟ بعد أن قررت تحدي العادات و التقاليد بل المجتمع نفسه ومساندة الطفلة و إبقاء جنينها حتى و لو طُردت لأقصى

الأرض.. ماذا يحدث؟! تموت الطفلة! و هي تضع مولودها غير مكتمل النمو ليتبعها هو الآخر! لك أن تتخيلها بذلك الوقت.. لقد أيقنتْ حينها أنها ستُجن.. كانت تُقَلِّب جسد ابنتها بعنف و تسأل الله أن يعيدها إليها.. ولكن وقع القضاء بما لا تغيير فيه.. لكن أتعلم لقد فاجأتني حينها كما عهدت منها دوماً.. لقد أقامت نفسها من بين الأنقاض من جديد.. و رَفِقَ الله بها فأنزل برداً على قلبها.. فصبرت و احتسبت.. رحمها الله و لم يرحمها البشر لا بأفعالهم و لا أقوالهم التي أطلقوها عليها متغافلين أن هناك إله يسمع و يرى! و لم يهدأ لهم بال و لم تهنأ لهم حياة حتى طردوها من البلدة حينها شعروا بالنصر مطمئنين أن الله سينزل بركاته على بلدتهم الطاهرة! لكن أتعلم كان الله لهم بالمرصاد.. لا يمر يومان متتاليان إلا و تصحو القرية على فاجعة تُلم بهم! أخبرتها قبل ذهابها أني سأتبعها أينما رحلت.. أردت على كبر سني و وهني أن أشعرها أن لها سنداً و لو لمرة.. لكنها أشفقت على عجزي و غادرت البلدة أثناء نومي.. لكني أعلم لمن لجأت و تأكدت من ظنوني فيما بعد.

أنهت حديثها مجففة الدموع المتساقطة من عينيها بيديها المرتعشتين. أراد يوسف منحها وقتاً لنفسها مثلما أراد هو الآخر ذلك الوقت لنفسه. استأذن منها بصوت مختنق بالعبرات.. سألته:

- ألا تريد أن تعلم مكانها؟

- سأعود إليكِ في الغد.

ثم أسرع بالمغادرة متجهاً للمكان الوحيد الذي لن تطاله به عين أحد "غرفته". توضأ بدموعه المنهمرة قبل الماء ثم أقام الصلاة. لم يستطع فهم ما يقول بصلاته حتى كان في أقرب موضع من الله فأجهش بالبكاء. و سأل نفسه: يا الله ما هذا الذي اقترفته بحقك؟ يا الله ماذا فعلت! و تساقطت العبرات.. لكن لم تكن هناك يد عم محسن الرفيقة تُنهضه. شعر بالوحدة، بالعجز، بالذنوب تطبق على صدره. حاول التنفس فلم يستطع مرة فثانية فثالثة و لا جديد. و عندما أحس بدنو الموت رفع رأسه يستنشق الهواء. أنهى صلاته و استند على باب غرفته جالساً القرفصاء يكمل بكاءه. احتقر نفسه بذلك الوقت كما لم يفعل من قبل.

لم يشعر بنفسه إلا في الصباح التالي و الشمس تسطع على رأسه التي كانت و كأنها أقامت داخلها عيداً. شعر بصداع يمزق كل خلية برأسه و آلمه جسده من الوضعية التي فرضها عليه طوال الليل. لكنه لا يتذكر أي شيء. كل ما يتذكره أنه كان يبكي حتى دمت مآقيه أما بعد ذلك فلا. لعل الله رحم عينيه و قلبه فألقى عليه النوم. نهض لا يكاد يرى من صداع رأسه. نظر بكسرة المرآة الموجودة بغرفته. يا الله! بدا شكله رهيباً فأي كلمة أخرى لم

تكن لتوفيه حقه. صلّى الصبح ثم خرج من الغرفة. اتَّجه يبحث عن صيدلية يبتاع منها دواءً لصداعه الذي يزداد أكثر فأكثر. تناول الدواء ثم ذهب قاصداً العجوز التي تركها بالأمس في حيرة من أمره.

وصل منزلها فطرق الباب ثم انتظر. سمع إجابتها بأنها قادمة. و بعد بضعة دقائق كان يستمع لخطواتها المتمهلة و هي تقترب. فتحت الباب تطالعه بشبح ابتسامة:

- ها قد أتيت!

فأومأ لها برأسه الذي بدأ الصداع يزول منه قليلاً و أجابها:

- و هل لي ألا آتي و أنا أعرف أنك تعلمين مكان المرأة التي أبحث عنها لأيام؟!

- تفضل بالدخول. ثم أفسحت له مجالاً للعبور.

- هل تناولت فطورك؟

سألته و هي تغلق الباب خلفه.

- ليس بعد.

قالها دون تفكير و بوازع من معدته التي أصبحت لا تحصل على القليل حتى.

- إذن لنتناوله سوياً.. فأنا أيضاً لم أفطر بعد.

- شكراً لكِ. فقط أعطني العنوان و سأذهب.

و لم تستمع لكلماته:

- إن لم تكن تمانع ساعدني بتحضيره فأنا بالكاد أستطيع السير.

- لا مشكلة.. تفضلي بالجلوس.. فقط أخبريني بمكانه و أنا سأحضّره لكِ.

وضع يده تحت مرفقها يقودها للأريكة التي كان يحتلها بالأمس. واستمع لتوجيهاتها و هي ترشده لمكان الغذاء. أعدَّ لها صينية وضعها أمامها. ثم احتل مكانها بالأمس.

- تناول شيئاً.

- شكراً لكِ.

- أتريد معرفة مكان سعاد لهذه الدرجة!

- نعم أرجوكِ.

- لماذا؟

سألته محاولة سبر أغواره كما كانت تفعل بالأمس. و انتظرت إجابته وهي تلوك الطعام بفمها و تنظر إليه. و كما حدث بالأمس تلعثم لسانه.

- لقد أخبرتكِ بالأمس.. ألا تذكرين؟

- بلى أتذكر..

ثم عادت لتناول فطورها. شعر بالحرج لمقاطعتها فلاذ بالصمت حتى تنتهي. انتهت حامدة ربها فتطوع لإعادة كل صنف لمكانه. فشكرته بوجه جامد. حدثته عندما عاد للجلوس أمامها:

- لدى سعاد أخت واحدة تقطن بمركز آخر.. و قد علمت من تتبعي المتواصل أنها لجأت إليها فبالنهاية هي ملاذها الوحيد.. اذهب هناك واسأل عن زوج أختها السيد "عبد الحفيظ كامل".. ستجد العشرات يدلونك عليه.. فالرجل تاجر معروف ببلدته.

ثم أخبرته اسم المركز و القرية و كيفية الذهاب إليها. فشكر لها معروفها ثم اتَّجه لمغادرة المنزل بأمل جديد و سعادة أنه استطاع التخلص من نظراتها إليه و التي لم يشعر بالراحة تجاهها مطلقاً. وضع يده على مقبض الباب يفتحه فسمع صوتها يأتي من خلفه:

- أنا لا أعلم من تكون و لا نية لي بذلك.. و لكن أريدك أن تعرف شيئاً قبل رحيلك.. أنت لا تستطيع الكذب فوجهك و عيناك يفضحانك.. ما أدركه جيداً أنك لست ما أخبرتني به.. و لديّ شك يكاد يكون يقيناً عن هويتك الحقيقية التي تسعى جاهداً لإخفائها.. في البداية لم أكن سأخبرك عن مكانها فأنت لا تستحق.. لكني رأيت إصرارك على لقائها من بحثك المتواصل عنها دون كلل لأيام متتالية.. أنا لا أخطيء قراءة الوجوه أبداً فما

مررت به ليس بالقليل و من قابلتهم ليسوا كذلك أيضاً.. أنا لا أعلم لِما فعلتَ ذلك حينها.. ربما تكون نادماً الآن أو ربما ما حدث لعائلتك غيَّر داخلك.. لكن ما اكتشفته آسفة عندما نظرت إليك أنك شخصٌ جيد ربما إذا حاولت أن تكون ذلك.. أنا لا أمتدحك أو بمنحي لعنوانها أعطيك أملاً بشيء قد لا تجده.. أنا فقط أعطيك فرصة لإخبارها بما تريد.. اذهب كما أخبرتك و ستجدها.. و نصيحة أخيرة مني لا تحاول الكذب على امرأة عركت الحياة حتى أحنت ظهرها.

أصغى لحديثها مولياً ظهره إليها. فلمَّا انتهت فتح الباب و خرج مغلقاً إياه خلفه.

الفصل الثامن

عاد لغرفته يجمع حاجياته للرحيل. و بعد انتهائه ذهب لصاحب المنزل و نقده ما تبقَّى من أجر الغرفة ثم ألقى عليه السلام مودعاً القرية التي شاركته إثمه في لفظ المرأة التي ما سببت أذى لأحد يوماً. غادر القرية بسيارة أوصلته للبلدة المنشودة. ترجل منها يسأل من يقابله عن السيد "عبدالحفيظ كامل" و صدق كلام العجوز فقد وجد أكثر من فرد يسعى لإرشاده. و سار مع أحدهم حتى أوصله للمنزل المنشود. أشار على بُعد خطوات إليه قائلاً:

- هذا هو المنزل.

شكره يوسف فابتسم الرجل مغادراً. و تطلع يوسف للمنزل من الخارج. كان منزلاً كبيراً ذا حديقة واسعة تمتليء بالأشجار الوارفة. منزلاً بدا على مالكه الثراء. سار حتى وصل إليه. ضغط الجرس ثم انتظر الإجابة و بعد مرور دقائق سمع خطوات قادمة و طالعته فتاة صغيرة سألته عن هويته، أخبرها أنه غريب يريد أن يسأل والدتها شيئاً فدخلت الفتاة تنادي والدتها. و حضرت الأم في غضون دقائق مستفهمة. بدا على ملامحها أنها

تكبر دادة سعاد بعدة سنوات و لكن لها ملامح مقاربة منها و إن كانت أغمق منها درجة أو اثنتين في لون البشرة. سألته عما يريد فأخبرها بما أخبر به المرأة العجوز وانتظر رِدَة فعلها و للعجب كانت أكثر تسامحاً من العجوز. أخبرته أنه نجدة أرسلها الله لأختها بعدما فقدت ابنتها جراء المرض اللعين الذي فاجأها بسن صغير و لم يكن معها المال لعلاجها! و قصَّت عليه كيف أنها رفضت أي نقود منها عندما لجأت إليها و بالتأكيد لن ترفض الأموال التي أحضرها فهي أجر عملها. ثم أخبرته متألمة:

- حتى أنها رفضت البقاء معي في هذا المنزل الواسع و أصرَّت على البقاء بمفردها على أطراف البلدة.

- هل يمكنكِ إرشادي لمنزلها؟

- بالطبع.

ثم أكملت آسفة:

- لقد ساءت أحوالها كثيراً بعد وفاة شمس حتى أنها للأسف أصبحت... تعال يا أنس.

قطعت حديثها هاتفة بصبي يبلغ حوالي الثمانِ سنوات يركض أمام المنزل. و عندما حضر الصبي خاطبته:

- أرشِد هذا الأستاذ لبيت خالتك. وابق معه حتى يعود.

- يا أمي أريد اللعب مع أصدقائي!

- هيا يا ولد..

أمرته و هي تكزّ على أسنانها. فأطاعها ساخطاً قائلاً بضيق: هيا اتبعني.

فقالت محاولة غض الطرف عن سلوك طفلها المشاكس:

- لا تؤاخذه يا أستاذ فهو مجرد صبي.

أومأ يوسف إليها متفهماً: لا مشكلة.. ثم تبع الصبي.

سار يتنقل به من طريق لآخر يسيران مرة بين منازل متجاورة ومرة بطرقات خالية. و يوسف خلال ذلك يفكر كيف ستكون المواجهة. محضِّراً الآلاف من كلمات الاعتذار. لكن يا تُرى ماذا ستكون ردة فعلها عندما تراه! و لم يفق من تساؤلاته إلا على جذب الصبي له من ذراعه قائلاً:

- أقول لك ها قد وصلنا. إنها تسكن بذلك الكوخ.

ثم أشار بسبابته لكوخ وحيد يقع على ضفة ترعة. نظر يوسف للكوخ مستطلعاً المنطقة المجاورة التي خلت من كل مظاهر الحياة. لم يلاحظ انتهاء المنازل و ساكنيها إلا عندما جذبه الصبي. لِما تسكن وحيدة هنا بدل أن تحيا بمنزل أختها الفسيح! سأل نفسه و هو يقلب ناظريه في المكان. و تذكر كيف عاملها البشر عندما كانت بقريتها. و كأنها تقر البشر بأنها الأخرى لا تريد

منهم و لو حتى شربة ماء! اختارت منفاها بعناية لتعتزل الجميع. حتى و لو كان ضمن هؤلاء الجميع شقيقتها و زوجها اللذان لم تستطع مصارحتهما بما جرى لها بل و أخبرتهم كاذبة عن رحيل ابنتها جراء مرض مفاجيء! لاحظ تأفف الصبي بجواره قبل أن يقول:

- ألن تذهب؟!

أراد الاختلاء بنفسه فهو لم يستجمع بعد تلك القوة التي ستمكّنه من مواجهتها. أدخل يده في جيب سرواله و أخرج جُنيهاً أعطاه للصبي قائلاً بابتسامة:

- ابتع لنفسك الحلوى حتى أنتهي.

أخذ الصبي الجُنيه و غادر فرحاً و تيقن يوسف أنه لن يعود! نظر حوله فوجد صخرة مرتفعة قليلاً عن الأرض فسار حتى جلس عليها يتأمل الكوخ المواجه لها. و كان عبارة عن كوخ بسيط للحق كان أبسط من البساطة ذاتها: ذا باب خشبي واحد و نافذة نصفها زجاج و الآخر خشب يُكمل ما تركه الزجاج المتكسر من فراغ. كان تعريف لمنزل لم يستطع الارتقاء لمعنى يمكن وضعه بقاموس مصطلحات المنازل. وفكر: دادة سعاد التي كانت تحيا معنا داخل القصر يصبح هذا "الشيء" مأواها الآن!

و لكن يعود و يخبر نفسه بألم:

– و ماذا أعطاها القصر بفخامته! لربما كان هذا الشيء أرحم بها وأكثر رأفة بفؤادها.

و بقى حيث كان يرسم داخل عقله عشرات السيناريوهات عن المقابلة المنتظرة. فقط حَذِفَ شيئاً واحداً من طُرق العقاب التي تخيلها من قبل بأنها ستصرخ طلباً للنجدة فيلتف حوله أهل البلدة و يوسعونه ضرباً. أعاد النظر حوله فلم يعثر على أثر أحد فنحى ذلك العقاب من مخيلته. وبقى بموضعه لِما يقرب من الساعة أو ربما كان كل الوقت المنقضي عشر دقائق تكفل خوفه و عقله بجعلها أطول مما اعتقد. ملَّ يوسف من الجلوس مكتوف اليدين. بدأت الشجاعة تتوغل بداخله شيئاً فشيئاً فرفع يديه ووجهه للسماء كما رأى دادة سعاد تفعل من قبل و كما علمه عم محسن ثم دعا ربه من أعماق قلبه:

– اللهم وفقني لما أتيت لأجله.. اللهم كن معي.

أنزل يده و نهض يسير بخطوات وئيدة تجاه الكوخ حتى أصبح مواجهاً لبابه. سمَّى الله ثم طرق طرقة فثانية فثالثة ولا مجيب.. رفع يده ليطرق الرابعة فسمع صوتها الذي اخترق أذنه:

– من هناك؟

و عجز لسانه عن الرد. و كأن قلبه أقام سباقاً. تسارعت نبضاته حتى كادت تصم أذنيه و هو يستمع لخطواتها تقترب خلف الباب الفاصل بينهما و دون أن يشعر تراجع جسده للوراء. لو لم يسيطر عليه لفر هارباً! استمع لقفل الباب و هو يُفتح ثم تبعه الباب ببطء و رآها ماثلة أمامه. نظرت حولها بعينين زائغتين تتسائل مرة أخرى:

- من هناك؟

- من هذه المرأة ؟!

صدمته رؤيتها مثلما صدمه سؤالها المتكرر عن هويته و هو يقف منتصباً أمامها! من هذه المرأة؟! ظل يتأملها طويلاً لا يكاد عقله يصدق أن هذا الجسد الذي يلتصق جلده بعظمه هو جسد المرأة التي قامت بتربيته! دادة سعاد التي ربتّه كان جسدها ممتلىء بعض الشيء و وجهها يضج بالحياة! إذن من هذه! تذكرها مقارناً بينها و بين الماثلة أمامه اليوم بعينين تدوران بكل اتّجاه إلا اتّجاهه هو! هذه المرأة التي بالكاد تستطيع الوقوف، هذه المرأة الأقرب للأشباح منها للإنسان. هذه ليست دادته!

و ما بالها تسأل عن هويته و هو يقف متطلعاً إليها! أتُراها فقدت ذاكرتها من شدة الألم الذي عايشته فلم تعد تستطيع التعرف عليه! و كررت سؤالها للمرة الثالثة و لَمَّا لم تجد صدى له تراجعت للوراء تفسح مكاناً لغلق

الباب. فأسرع يقبض حافة الباب بيده ليمنعها من غلقه قائلاً بصوت متقطع:

- إنه.. أنا.. دادة سعاد.

عندما سمعت صوته تركت الباب و تراجعت للوراء حتى اصطدمت بمنضدة صغيرة موضوعة على الأرض فسقطت أرضاً تتألم. و أدرك عقله متأخراً حقيقة الأمر "إن دادة سعاد كفيفة لا ترى!".

صدمة عصفت بكيانه فأسقطته أرضاً حيث هو تنهمر عبراته على خديه. دادة سعاد لم تعد ترى! كيف ذلك؟ لما لم يخبره أحد؟ بالتأكيد هو السبب بما حدث لها مثلما كان السبب بكل الآلام التي عايشتها. و عندما وجدها تتألم و لا تستطيع النهوض زحف أرضاً حتى وصل إليها. مدَّ يده إليها ليساعدها على النهوض فدفعتها صارخة به:

- اخرج من منزلي.

ماذا؟ أين السكين؟ و أين صرختها للنجدة؟ أين ضربها له؟ فقط صرخة واحدة تأمره بالخروج! و فاجأته كما اعتاد منها دوماً. فتراجع للوراء قائلاً:

- أنا...

- قلت لك اخرج من منزلي.

و كأنه قد عاد طفلاً يقف حائراً مكانه عندما يوبخه أحد والديه لا يعلم ماذا عليه أن يفعل. و تراجعت خطواته للوراء أمام صرخاتها المتتابعة بوجهه تأمره بالخروج. رَحِمَ ضعفها و أشفق على عجزها. فخرج كما شاءت و أغلق الباب الفاصل بينهما.

عاد لصخرته يجلس عليها و يبكي للمرة التي لا يعلم عددها. كل ما يعرفه أنه منذ رحلت شقيقته و هو لم يتوقف لحظةً عن البكاء. بكى متطلعاً لكوخها المتهالك و سأل نفسه: ما تراها تفعل الآن خلف بابها المغلق؟ هل نقَّب بداخلها ذكريات تكافح للزوال! هل تبكي هي الأخرى مثله الآن؟ بالتأكيد تفعل.

لعن نفسه مرات و مرات و هو يعيد سؤال نفسه: هل تلك المرأة التي واجهها و تحدث معها الآن.. تلك التي رآها.. التي بالكاد استطاعت التحدث.. هل هي دادته؟!

و نفى عقله الأمر بقوة: لا إنها ليست المرأة التي تربى في كنفها و نهل من حنانها حتى أنضبه.. تلك الكفيفة الهزيلة ليست بالطبع دادة سعاد.

و صرخت أعماقه: يا الله لا تجعلني سبب فقدها لبصرها. يارب أخلف ظني! لكن لا لقد كان متيقناً أنه -وكما كل مرة- السبب بما حدث لها.

و توسله القلب المعذب: لا تدعها يا يوسف! لا تتخلى عنها في محنتها هذه.. لربما أرسلك الله خصيصاً بهذا الوقت لتكون عوناً لها و عكازاً تستند عليه في وهنها.. لا تستمع لكلماتها و ترحل.. قف بجانبها و ساندها ولو لمرة واحدة بحياتك.

و قلّب بصره بالمكان الخاوي من حوله متسائلاً عن الخطوة التالية. ماذا سيفعل و إلى أين سيذهب. هل سيبحث عن غرفة جديدة يقيم فيها! أم هل ينتظر للغد قبل و بعدها يقرر ماذا يفعل! و تقلصت معدته على حين غرة فشعر بالألم. يدرك أن جسده يكاد يصرخ من قلة الطعام الذي يزوده به هذا إن كان يفعل! و نظر للطريق الذي أتى منه مفكراً: ذلك الشقي لم يأت كما توقعت!

أخرج النقود من جيبه يعدها فوجدها قد أوشكت على النفاذ. و هو لم يتقدم خطوة واحدة حتى الآن من هدفه. لا زال يدور داخل دوائر مفرغة. حتى عندما شعر أنه اقترب وجد الحال أسوأ بعشرات المرات مما اعتقد. تنهد و هو يترك القليل منها بيده معيداً الباقي لجيبه. ثم نهض يبحث عن مكان يبتاع منه طعاماً يُرضي معدته الساخطة!

سار على مهل يحاول حفظ معالم الطريق الذي يسير به. فهو سيعود منه مرة أخرى. و رأى أثناء سيره محل بقالة صغير ابتاع منه بعض البسكويت

وقف يتناوله و هو يسأل البائع عن أقرب مسجد. وصف له الرجل الطريق فشكره ثم ذهب إليه. أقام صلواته الفائتة ثم جلس يكمل طعامه. بقى بالمسجد عُرضةً للنظرات الفضولية التي تريد معرفة من هذا الغريب الذي حلَّ على قريتهم. لكن لحسن حظه لم يخاطبه أحد فبقى حيث هو حتى انتهت الصلاة لذلك اليوم فعاد لصخرته مرة أخرى لا يعلم مكاناً آخر يلجأ إليه.

و اكتنفه الظلام فنظر لكوخ دادة سعاد فوجدها قد أشعلت ضوءاً تستأنس به على عجزها. ترك الصخرة و اتَّجه يستند على الجدار الخلفي للكوخ يتلمس الدفء. و عندما شعر بصقيع الليل يلفه أخرج ملابس إضافية من حقيبته ارتداها فوق ملابسه ثم جلس القرفصاء يضم ركبتيه إلى صدره محاولاً بعث الدفء بجسده. كان يسمع تحركاتها الخفيفة من موضعه و هي تسير بين الحين و الآخر حتى أغلقت ضوء المصباح فساد المكان صمت مهيب. شعر بالبرد يتخلل جسده فشد ذراعيه عليه أكثر، ثم غلبه سلطان النوم و هو على وضعيته تلك.

أشرقت شمس الصباح على وجهه فتململ في نومته حتى استيقظ ينظر لحاله. و جد نفسه قد افترش الأرض ملتصقاً بجدار الكوخ. و قبل أن

ينهض من مجلسه سمع أقدام صغيرة تجري تجاه الكوخ. ثم طرقات متتالية على بابه و صوت دادته يسأل:

- من هناك؟

- إنه أنا خالتي.. افتحي.

تلا ذلك صمت قبل أن يسمع خطواتها المتجهة لفتح الباب:

- صباح الخير أنس.

- صباح الخير خالتي. لقد أرسلت أمي لكِ الطعام.

- اشكرها من أجلي حبيبي.. تعال ادخل.

- لا سأذهب لألعب مع أصدقائي.. إلى اللقاء.

ثم ابتعدت خطواته. و انحسرت خطواتها هي الأخرى للداخل قبل أن تعيد غلق الباب.. ثم طرقة أخرى و كانت يد يوسف هي الفاعلة هذه المرة. رجع بظهره خطوة للوراء و هو يستمع لخطواتها المتجهة إليه. طالعه وجهها تتسائل:

- هل نسيت شيئاً أنس؟

- إنه أنا دادة.

و لابد أنها قد تعرفت على صوته هذه المرة فانقبضت ابتسامتها ثم اتَّجهت لغلق الباب. فقبض عليه بيده متوسلاً:

- أرجوكِ دادة سعاد...

نفضت الباب من يده بقوة صارخة به:

ماذا هناك؟ ألم أطردك بالأمس؟ لِما مازلت هنا؟-

أنا لن أذهب حتى...-

- حتى ماذا؟ أسامحك؟! في أحلامك التي لن تزورك أبداً يا يوسف.

قالتها بسخط. فتهاوت يده عن الباب. و شعرت هي بذلك فأسرعت لغلقه قائلة:

- اذهب من هنا.. لا أريد سماع صوتك القذر مرة أخرى.. و إذا لم تفعل سأشكوك لزوج أختي فيوسعك ضرباً.

- أرجوكِ دادة سعاد.. استمعي إليّ.. فقط مرة واحدة.. أرجوكِ.

انتظر فلم يسمع إجابة من خلف بابها. أعاد توسله:

- أرجوكِ دادة سعاد.

و كأنها قد ضاقت ذرعاً به.. صاحت بحنق:

- قلت لك اذهب من هنا.

و أعاد توسله للمرة الثالثة و هو يشعر بطعم الدموع في فمه:

- أرجوكِ إسمعيني و لو من خلف بابك!

- ماذا تريدني أن أسمع؟ ستعتذر! أوان الاعتذار قد عفا عليه الزمن وماتت من عليك الاعتذار إليها.. اغرب عني أيها الحقير.

- أرجوكِ.. مرة واحدة.

توسلها بيأس و صوته يختنق.. و عندما استمع لصمتها شعر أنها تمنحه فرصة للحديث.. جفف عبراته و خاطبها بصوت متحشرج من أثر البكاء:

- أنا لم آتِ لألقي عليك اعتذاراً واهياً ثم أتركك و أرحل هانيء البال.. لن أكذب عليكِ دادة و أقول أنما أتيت فقط لأني اشتقت لرؤيتكِ و الاطمئنان عليكِ.. فالله وحده أعلم بشوقي لسماع اسمي يتردد مرة أخرى من بين شفتيكِ فما الحال برؤيتك! و لكن لم يكن هذا سببي الأول و الأهم.. لكنه أصبح كذلك و إن كنت لن تصدقي حديثي عندما وطأت قدماي أرض بلدتك الأولى و رأيت ما آلت إليه الأمور.. حينها تحول السبب الرئيسي لفرعي و العكس.. صدقيني دادة ما يهمني الآن هو أنتِ فقط و لا أحد أخر.. أريد أن أتحدث معكِ كما الماضي، أسمعكِ و أراكِ. نعم أعلم أنك لن تفعلي مثلما أعلم أني أناني حقير لا أفكر إلا بسعادتي أنا فقط.. لكني لن أسعى لتغيير ذلك.. و لتأكيد أنانيتي بشأنك أريد أن أقص عليكِ أنت فقط ما لم أستطع البوح به لأحد و لا حتى نفسي.

و ساد الصمت بينهما.. لكنه كان يعلم أنها تستمع لحديثه من مكانها فأكمل:

- لقد تغيرت.. أعلم أنكِ الآن تبتسمين بسخرية و تسألين نفسك عن أهمية هذا لكِ.. ما شأنك أنتِ إذا تاب الشيطان الذي دمر حياتك أو أُلقى في السعير! و لكني سأخبركِ فتلك التوبة التي اهتديت إليها لم تكُن وليدة اللحظة.. فبعد ذلك اليوم الذي عدتِ به لتخبرينا عن موت شمس انقلبت حياتنا رأساً على عقب.. كانت البداية مع ملك بيوم عيد مولدها الثالث عشر.. ليلتها سقطت دون مقدمات صريعة لمرض لم يستطع الطب على علو شأنه و تقدم أبحاثه معرفة ماهيته أو موضعه! و ماذا حدث بعد ذلك؟ بعد شهور متواصلة من الألم و العذاب تُوفيت أمام ناظراي و أنا عاجز لا أستطع أن أمد لها يد المساعدة!

صمت قليلاً يترحم بعبراته المتساقطة على شقيقته التي لن ينس أبداً العذاب الذي حيته.. و أكمل:

- أعلم أنك تبكينها الآن.. فرغم كل شيء كانت هي ابنتك الثانية بعد شمس -رحمها الله- و بالنهاية كانت هي الروح النقية التي تحيا بيننا و التي لم تستطع تحمل آثامنا فرحلت بهدوء لكن بعد رحلة شاقة من العذاب..

عزائي الوحيد أنها بالتأكيد ذهبت لمكان أكثر نقاءً و طهراً.. رحمة الله على أمواتنا أجمعين.

قالها و ازداد اختناق صوته بالعبرات فصمت محاولاً السيطرة على انفعالاته. كفَّ دموعه المنهمرة على ذكرى شقيقته قبل أن يكمل لها باقي القصة:

– و يوم وارى وجه ملك التراب أعلنت الحكومة إفلاس أبي.. و كأن المصائب لا تأتي فرادى.. فقد أبي كل شيء.. لم يستطع التحمل و لم نقو على إنقاذه.. و انتهت حياته بسكتة قلبية أودت به.. و لم يعد يتبق من عائلتنا إلا أنا و أمي.. هي تحيا الآن بفيلا جدي.. و ها أنا ذا أقف أمام بابكِ.. كان الله رحيماً بي رغم كل ما اقترفت أرسل لي رجلاً شديد الطيبة ذكرني بك.. أشفق عليّ و أخذني للبقاء معه.. منحني ماله و عطفه و قلبه حتى تحولت لما أنا عليه الآن.. أنا لا أريد أن أخبرك يقيناً دادة أني تغيرت.. لكني أثق بشيء واحد و هو أنني أحاول جاهداً.. و أني هجرت كل ما كنت أفعله سابقاً.. أتيت إليكِ بعدما فقدت كل شيء أرجو صفحك.. لا أريد أن أحملك ما لا تطيقينه لكن لي رجاء أخير منكِ.. لا تطرديني من جانبك.. فبالأمس ولأول مرة أشعر أن قلبي غدت تعود إليه الحياة من جديد فقط بمجرد أن

تطلعت لوجهك.. أنا لا أكذب و لا أحاول التحايل عليكِ.. هذه هي الحقيقة التي أحببت مشاركتكِ بها دون الجميع.

أنهى حديثه مكفكفاً ما خانه من عبرات و مستمعاً بألم لتنهيدتها الحارقة خلف الباب، ثم استأنف:

- سأذهب الآن لكني سأعود من جديد.. أرجو حينها أن تفتحي الباب لي.. إلى اللقاء دادة سعاد.

عاد لصخرته محاولاً ترتيب أفكاره و استرداد روحه المنهكة من ذرف العبرات. عندما تحدث معها لم تكن المتحدثة إلا روحه ترتجل ما يجول بخاطره. لم يكن يكذب و هو يخبرها أنه فقط يريد البقاء إلى جانبها ومشاطرة وحدتها و آلامها. نعم يعترف أنه في البداية أراد فقط الاعتذار إليها ثم يذهب لحال سبيله محاولاً بدء حياة جديدة و لكن بعدما خطت قدماه بلدتها القديمة و إطلع على ما فعله أهلها معها و الإشاعات التي أطلقوها عليها بسببه تغيرت خطته. أصبح شيئا فشيئا يتخلى عن أنانيته المفرطة حتى تخلص منها نهائيا و هو يراها بهيئتها تلك. كفيفة لا تستطيع حتى التعرف عليه و هو يقف أمامها. هزيلة الجسد، منعدمة الصحة، منعزلة عن البشر.. عندما رآها تحيا جسداً دون روح. حينها أصبح شغله الشاغل فعل أي شيء من شأنه إزالة ولو جزء ضئيل من ألمها.

إذن ما هي الخطوة التالية؟ سؤال لم يستطع التفكير بإجابته بعد و هو يتراءى أمام عينيه عم محسن. يا الله عم محسن! لقد غفل عنه تماماً في خضم بحثه المتواصل. و تذكر أنه رأى هاتفاً بمحل البقالة الذي ابتاع منه بالأمس. إذن فليحادثه من هناك. عاد لذات المحل و طلب من مالكه التحدث بالهاتف فوافق. أخرج يوسف الورقة المحفوظة بعناية و ضغط الأرقام واستمع لرنين الهاتف المتواصل

- السلام عليكم..

و بمجرد أن سمع صوته عادت إليه الحياة. ابتسم بسعادة لأول مرة مجيباً:

- عليكم السلام عم محسن.. لقد اشتقت لسماع صوتك.

كاد يسمع صرخة الرجل المتفاجئة و هو يجيبه:

- يوسف! كيف حالك بني؟

- بخير عم محسن.. الحمد لله.

- أنا غاضب منك.

و وصله صوت يوسف آسفاً:

- أعتذر منك عم محسن.. أقسم أني أردت مهاتفتك لكني أحببت أن أحرز تقدماً أقصه عليك.

- إذن هل وجدتها؟

- بلى. الحمد لله.. لكن...

- ماذا هناك؟!

- لقد باتت كفيفة.. لم تستطع التعرف إليّ.

ثم مضى يقص عليه ما لاقته و ما آلت إليه حالها و كيف استقبلته. وعندما انتهى قال عم محسن بأسى:

- لا حول و لا قوة إلا بالله.. لقد قاست هذه المرأة الكثير و تحملت الأكثر.. رحمها الله.. و ماذا ستفعل الآن؟

- لا أعلم بعد عم محسن.. لكني لن أتركها بهذه الحال.. و بشأن هذا لا أعلم إلى متى ستدوم إقامتي هنا.. لذا أرجوك اهتم بنفسك حتى أراك.. سأعيد مهاتفتك بالتأكيد.

ودَّعا بعضهما ثم أغلق يوسف المكالمة متجهاً لنقد البائع الذي احترم خصوصيته فابتعد قليلاً عن المكان ثمن المكالمة. ابتاع لنفسه بعض البسكويت مرة أخرى و ذهب يتناوله بطريقه للمسجد. سمع صوت الأذان يرتفع و تذكر أنه لم يصلِ الصبح فاستغفر ربه كثيراً على تقصيره. ثم اتَّجه لإقامة الصلاة مع الآخرين.

أنهى صلاته فجلس يذكر الله.. و بينما هو جالس اقترب منه شاب يكبره ببضع سنوات ليجلس إلى جواره. جلس متسائلاً عن هويته و سبب حضوره لبلدتهم فهو على حد علمه: لم يره إلا بالأمس و في هذا الموضع.. وأرضى يوسف فضوله بنصف الحقيقة:

- لقد تُوفي أبي و خسرت أموالي ثم تناقلتني البلاد حتى وجدتني هنا.

بدت علامات الشفقة على محيا الشاب و هو يقول:

- لا حول و لا قوة إلا بالله.. لا تحزن فأنت قدِمت لأفضل مكان.. نعم ليس بالمكان الذي تتوافر به معظم الخدمات الترفيهية لكنك ستجد كرماً و ترحيباً يُشعرك أن كل منزل هنا إنما هو منزلك.

- بالتأكيد. أجابه يوسف بشبح ابتسامة داعياً الله بداخله أن تكون دادة سعاد بهذا الكرم و تصفح عنه.

- أنا أدعى خالد. ماذا عنك؟

- يوسف. تشرفت بلقائك.

- و أنا أيضاً. إذن ماذا ستفعل الآن؟

- لا أدري.. لكن يجب أن أبدأ بالبحث عن عمل.

- و هل عثرت على مكان تقيم فيه؟

أجابه يوسف خجلاً من واقعه المرير:

- لا.. لكن يمكنني البقاء بأي مكان حتى لو كان عرض الطريق نفسه.

- قم معي.

لكن و على الرغم من بشاشة وجه الشاب و عرضه بالذهاب الذي بالتأكيد يتضمن مكاناً أفضل من خلف كوخ دادة سعاد إلا أنه توجس في نفسه خيفة من الذهاب مع شخص مجهول كهذا فعم محسن لن يتكرر كل يوم! و أدرك خالد ما يجول بخاطره:

- هل أنت خائف من الذهاب معي! بالطبع لن أؤذيك. و لتطمئن أنا أريد منحك عملاً و مكاناً تأوى إليه.. لدي مخزن حبوب كبير سأمنحك عملاً به.. و في الليل هناك غرفة داخل المخزن يمكنك أن تنام بها.

ثم ضحك و أكمل:

- أنا من عليه أن يخاف فأنا سأضع غريب وسط أموالي! لكن تبدو على وجهك الطيبة و الأصل الحسن.. و إذا كنت لا تزال خائفاً يمكنك سؤال أي شخص تقابله و سيؤكد لك هويتي.

و اطمأن يوسف لحديثه مفكراً ماذا سيفعل إن أضاع هذه الفرصة من يده! ربما تكون فرصته الوحيدة للنجاة بهذا المكان. فنقوده باتت على وشك

النفاذ و ليس لديه مكان يأويه إذا أصر على البقاء. لربما هذه فرصة منحها الله له ليبقى!

- هل ستأتي؟

- بلى..

قرار اتَّخذه داعياً ألا يندم عليه فيما بعد. و خرج الشاب من المسجد يتبعه يوسف. سارا حتى بلغا مبنى واسع يتكون من طابق واحد. دخل الشاب مُلقياً التحية على العمال. ردوها عليه متطلعين بفضول للشاب الذي يتبعه.

- ذلك مكتبي لنجلس هناك.

و أشار بيده لمكتب خشبي قائم بأحد الزوايا الفارغة. اتَّجها إليه. جلس خالد و يوسف مقابله.

- في الواقع هناك عمل واحد متاح الآن.. لا أعلم إن كان يناسبك.. لكني استشعرت حاجتك لأي عمل خاصة وأنت بمكان غريب.

- و ما هذا العمل؟

- ستعمل مثل ذلك الشاب.

ثم أشار بإصبعه لنقطة خلف ظهر يوسف. التفت يوسف يتتبع إصبعه. بحث كثيراً بعينيه عن تلك النقطة لكنه لم يجد شيئاً. فقط كان هناك

شاب ينقل البضائع على ظهره. إذن إلى أين يشير؟! أعاد الالتفات إليه يتساءل بحيرة:

- مثل من أنا لا أرى أحداً!

ثم صمت دقيقة يعيد ترتيب المشهد بعقله. فلم يحصل إلا على ذلك الشاب الحمَّال. صُعِقَ و هو يستمع للإجابة التي حاول نكرانها بداخله:

- ذلك الفتى الذي يحمل البضائع...

- تريدني أن أحمل البضائع على ظهري.. هل جُننت! ألا تعلم من أكون!

الفصل التاسع

لحظة كِبر بأصله اعترته فنهض ينظر للشاب بحدة. و ابتلع الآخر إهانته قائلاً:

- لا داعي للإهانة.. أنت حر في قبولك أو رفضك.. أنا فقط وضعت حاجتك برأسي و أردت أن أقدم لك يد المساعدة.. عامةً خذ وقتك بالتفكير.. و أنا بابي مفتوح عد وقتما تريد.

غادره يوسف دون كلمة. و عاد يجلس على صخرته يعيد على عقله رِدَة فعله العنيفة تجاه الشاب. إذا فكَّر ملياً بالأمر فسيدرك أن خالد ذاك لم يُخطيء بحقه. هو فقط أراد أن يوفِّر له عملاً يتكسب منه و مكاناً يأوي إليه في عتمة الليل و برده، لكن أن يصبح حمَّالاً هذا ما لم و لن يتقبله أبداً يكفي ما تنازل عنه حتى هذه اللحظة! هو حتى لم يكن ليفهم معنى الكلمة قبل أن يُمثَّل أمام عينيه. و لمح دادة سعاد تفتح بابها و تخرج مستندة على جدار الكوخ ثم تجلس أرضاً بالقرب من ترعة المياه. إذن هل سيتخلى عن قضيته و يعود للقاهرة خالي الوفاض؟ سأل نفسه و هو يتطلع إليها. أعاد إخراج المال المُتبقي معه يعده مجدداً. و أقَّر لنفسه بسخرية:

- لِما التكبر و أنا خلال إسبوع على الأكثر سأصبح شحاذاً أتسول طعامي! أليس العمل مهما بلغت قسوته أكرم لماء وجهي من التسول!

و هدأت ثورته قليلاً تجاه الأمر، و نازعته نفسه: جانب يطلب منه الموافقة و بإذن الله ستتحسن الأمور و ينتقل لعمل أفضل. و آخر ينهره على تردده فالأمر محسوم بالرفض مُذكِّراً إياه بتاريخ و أصول عائلتيه العريقة.

و عندما آلمته رأسه من التفكير قرر مهاتفة عم محسن و استشارته بالأمر.

- لا أدري يا يوسف.. فأنت أعلم بنفسك مني.. لكن إذا كنت بمكانك لوافقت.. على الأقل حتى تعتاد البلدة و يألف أهلها وجهك ويطمئنون إليك.. أو حتى تجد عملاً آخر.. أنت قررت البقاء.. و حتى لا تخدع نفسك بُني كلانا يعلم أن إقامتك ستطول لوقت يعلمه الله وحده.. أدرك أن الأمر ليس بهين عليك.. و أعلم أن كبرياءك ينازعك الآن.. لكننا اعتدنا على مصارحة بعضنا البعض.. كلانا يعلم أنك تحتاج مكاناً عاجلاً للإقامة فلن تُمضي كل ليلة مُثلجاً في العراء.. أيضاً أنت بحاجة للمال لتستطيع الحياة بمكان لن يمد لك يد العون به أحد.. إما أن تختار العودة إلى جانب عائلتك و ينتهي الامر.

كانت تلك إجابة عم محسن عندما عرض عليه الأمر و سأله عن رأيه.

زفر يوسف بألم مفكّراً بجملة عم محسن الأخيرة:

- و هل سينتهي حقاً!

و لَمَّا كان يعلم الإجابة جيداً لم يُعلّق على صمت عم محسن. أنهى المحادثة و اتّجه للمسجد. أقام ركعتين دعا الله بهما أن يوفقه للصواب. ثم جلس بزاوية من زوايا المسجد يفكر بحيادية. عم محسن محق. نعم يعلم أنه قسا عليه بالرد لكنه مُحق. هو لا يعرف فرداً هنا فضلاً عن مكان يلجأ إليه، مثلما يعلم أفضل من غيره أن نقوده كادت تنفذ و لو ذهب لتأجير غرفة مثلما فعل بالبلدة الأخرى لانتهت على الفور. و دادة سعاد لن تقبل به بهذه البساطة. إذن لا يوجد أمامه حلٌ آخر، لكن ألا يوجد أفضل من هذا العمل! فهو رغم كل شيء درس بأفضل المدارس طوال سنوات دراسته. حتي أنه كاد ينهي جامعته. إذن ألا يوجد شيء آخر!

لفظها يحاول أن يُسيغها لعقله: حمَّال؟.. يا الله لا يقدر على استساغتها مهما حاول. و أثناء تفكيره رأى خالداً يدخل من باب المسجد. لم ينظر تجاهه. يعلم أنه رآه لكنه لم يُوجِّه إليه كلمة ربما يكون غاضب من إهانة يوسف له. أو ربما لا يريد أن يفرض عليه رأيه بشأن العمل. و بالطبع لم يُوجِّه له يوسف هو الآخر كلمة. و عندما انتهت الصلاة اختفى من المسجد

دون أثر. بقى يوسف بالمسجد حتى أنهى صلواته جميعها. بعدها عاد أدراجه لصخرته يجلس عليها.

و بعد برهة أحب أن يخبر دادة سعاد أنه لم يُخلف وعده لها. و أنه مازال هنا و لم يغادر كما أمرته. فطرق طرقة خفيفة على بابها قائلاً:

- دادة سعاد أنا بالخارج نادني إذا احتجتِ شيئاً.

ثم اتَّجه لموضعه خلف الكوخ. كانت ليلة شديدة البرودة كادت تفتك بعظامه. و لم تُجدِ محاولاته لضم نفسه أو ضم ملابسه عليه أكثر نفعاً بالنهاية. شعر بنفسه يحتضر، فحاول إفاقتها قدر المستطاع حتى لا يُسلم قلبه لبرودة الموت، لكن عينيه كانتا تأبى تشبثه بالحياة. و سمِع صوتاً يناديه و هو في هذيانه ذاك بين اليقظة و الحلم. لم يُلق بالاً للصوت. و استمر جسده بالتراخي و عقله يخبره أن هذا أفضل فقريباً سينتهي ألمه. و استمر الصوت بمناداته. حنِق عليه، لِما يستمر بإزعاج راحته! حاول تمييزه. صارع نفسه للعودة ممنياً نفسه بأن ذاك صوتها. بأنها قد عادت للحياة. نعم إنه صوت ملك يناديه! فتح عينيه بصعوبة مجبراً ذهنه على العودة. ثم سمع الصوت من جديد، لكنه لم يكن صوت ملك بل كان صوتها هي تدفع جسده بعنف قائلة:

- أنت! استيقظ!

- ماذا؟

- خذ هذا الغطاء!

ثم ألقت عليه غطاءاً ثقيلاً و عادت للداخل. و كأن الله أرسلها نجدةً له بهذا الوقت الذي قررت فيه روحه ترك جسده. يا الله لك الحمد على كل شيء. دثَّر نفسه بالغطاء جيداً. شعر بالدفء يتسرب إليه ببطء فنام قرير العين.

استيقظ نشيطاً بصباح اليوم التالي. و طرق بابها قائلاً:

- شكراً لكِ دادة سعاد.. سأترك لكِ الغطاء هنا أمام الباب.

وضعه عازماً على تنفيذ القرار الذي اهتدى إليه عقله. ذهب رأساً لمخزن خالد فبعد ما عايشه بالأمس و أمام حنانها الذي لا زالت تغمره به لا يوجد أمامه حلٌ آخر. وصل لوجهته فرأى المخزن قد فتح أبوابه على مصراعيه و كأنه يدعوه إليه. دخل يقدم قدماً تلو الأخرى حتى وصل لذات المكتب الذي أهان صاحبه بالأمس.رفع خالد بصره إليه. كان يعلم صعوبة الأمر على نفسه فتولى دفة الحديث:

- صباح الخير يوسف.

- صباح الخير خالد.

و انتهت الكلمات هنا! و كأن العزيمة التي بقى يؤججها تراخت دفعة واحدة. كان الأمر ثقيلاً على نفسه ليس احتقاراً للمهنة، لكن أن تكون له هو! و أن يعود مرة أخرى بعد ذهابه الغاضب مسبقاً! هذا ما كان يؤلمه كثيراً. و كان خالد هو الباديء بالحديث مرة أخرى:

– يمكنك البدء بالعمل من اليوم.. و كما وعدتك بالأمس لك غرفتك الخاصة.. هيا لأريها لك.

نهض يُطلعه على الغرفة. اتَّجه خالد لركن من أركان المخزن. أدار مقبض باب به فانفتح كاشفاً عن غرفة مرتبة تحتوي فراشاً نظيفاً و خزانة للملابس. غرفة بدا أنها استُعملت حتى وقت قريب.

– ستبدو الغرفة لك و كأن أحداً يقطن بها.. لقد كنت أنام بها بين الحين و الآخر.. لكنها أصبحت لك الآن.. هيا ضع حقيبتك و وافني.

وضع يوسف أخيراً حقيبته التي لم تفارقه منذ حضر لهذه البلدة. أغلق بابها و سلمّه خالد المفتاح ثم سار به يعرفه على الآخرين. كانوا ثلاثة: اثنان يكبرانه عمراً و الثالث يصغره بعام أو اثنين.. و هو من أشار خالد إليه بالأمس. و بعد أن تعرف كلٌ على الآخر عاد الثلاثة لعملهم و ذهب به خالد لمكتبه ليخبره عن طبيعة و ميعاد العمل.

- كما ترى هذا مخزن للحبوب.. كل فترة إن لم يكن يوماً تدخل وتخرج بضائع.. كل المطلوب منك هو أن تُعاون الآخرين بنقلها.. و بعدما تنتهي تجلس براحة.. سأنقدك مائتي جنيه بالشهر.. و بالنسبة للغرفة لا أريد مالاً لأجلها فهي على أية حال كانت خاوية.. صحيح نسيت أن أسألك.

- ماذا؟

- تبدو على قدر من التعليم.. أين توقفت أم أنك مازلت تدرس؟

- مازلت طالباً بكلية التجارة يتبقى لي عام واحد.

- هل ستكمله و أنت هنا؟

- لم أقرر بعد.

و لم يكن يكذب فهو بالطبع لم تكن لديه الفرصة الكافية ليسأل نفسه هذا السؤال. و تابع خالد:

- أما أنا فقد تخرجت من كلية الزراعة.. دخلتها لأصبح مهندساً زراعياً و أساعد والدي بعمله.. و بأوقات فراغي أجلس هنا بالمخزن.. والدي يحضر في بضع الأحيان سأعرفك عليه بالتأكيد.

و أثناء حديثهما وصلت شاحنة معبأة بشكائر الحبوب. نظر خالد إليه نظرة فهمها على الفور فنهض دون حديث يتبع زملاءه محاولاً محاكاة ما يفعلون. و لأول مرة يحمل شيئاً على جسده! بل و يُطلب منه أن يلتفت

ليضعوه على ظهره! التفت كما أرادوا فوضع أحدهم شِكارةً ثقيلة عليه، لحظة أن حملها انحنى جسده للأمام حتى كاد يسقط على وجهه. لم يستطع السير أول الأمر، فكان ينقل القدم ثم يتوقف بضع لحظات ليستطيع نقل القدم الثانية فيكون خطوة. إحساس غريب اعتراه لم يفهم ماهيته مُعززاً بألم ظهر تمكن منه و عرقٌ غزير أغرق ثيابه، إحساس لم يختبره من قبل قط. و لم يستطع بذلك اليوم العودة للاطمئنان على دادة سعاد أو إخبارها بما آل إليه أمره. فقد تمكن الألم منه. و بمجرد أن انتهى العمل و ذهب كلٌّ لمنزله، استلقى على فراشه متأوهاً بكل عضو في جسده.

و لم يشعر بالوقت إلا و هو يسمع أصواتهم العائدة في الصباح التالي وطرقة على الباب تدعوه للاستيقاظ. استيقظ محاولاً رفع جسده المتألم ليلحق بهم. وبعد دقائق من التأوهات جلس على طرف الفراش يبث لنفسه عبارات التشجيع و التحمل للصمود بوجه هذا العمل الشاق. لا يريد أن يُطلِق عليه الآخرون ألقاباً مثل "الغِر" أو "الحَدَث". و كان عمله بذلك اليوم مماثلاً لِما سبق.

و يومٌ تلا آخر. و اعتاد ظهره شيئا فشيئا على العمل فخفَّ الألم قليلاً. و بدأ يعتاد صحبة زملائه حتى أنه أضحى يشترك معهم بوجبات طعامهم بعد أن كان يتناولها وحيداً بإحدى الزوايا. و بات يشترك بمرحهم

وأحاديثهم، لكن كانت حياته السابقة في عِداد الأسرار العظمى لا يتطرق إليها أبداً مهما تكاثرت الأسئلة من حوله و حثته على الحديث. و إذا حدث و ضاق الخِناق عليه كان يخبرهم بما أخبر به خالداً عندما تعرفا على بعضهما و ينتهي الحديث عند ذلك الحد بين الشفقة و الريبة.

و بعد مرور أيام اعتاد الاستيقاظ باكراً. كان يصحو للصلاة ثم يخرج مغلقاً المخزن خلفه. و يذهب للمطعم القريب يطلب إفطاراً يوصله بنفسه لدادة سعاد، يطرق بابها و يخبرها أنه أحضر إفطارها فلا تجيبه. فيخبرها أنه سيذهب، و يبتعد منتظراً رؤيتها تخرج بقلب تتسابق نبضاته و عقل يُقِّر عليه أن انتظاره سيكون عبثاً.

بأول يوم صدق عقله و لم تخرج، و لَّما شعر أنه سيتأخر غادر المكان مُسرعاً ليصل إلى المخزن قبل حضور زملاؤه و سؤاله عما كان يفعل بالخارج في ذلك هذا الوقت و تبدأ التساؤلات التي لا تكُّف يوماً! و كذلك في اليوم الثاني و الثالث حتى وصل الأمر لإسبوع. و بكل يوم كان يعود إليها وقت الظهيرة فيجد الطعام كما هو لم تمسه يد. فيتركه على حاله و يعود كسير الفؤاد لعمله. قصَّ عليها بأول يوم ذهب إليها كيف اهتدى لهذا العمل. بثها شكواه و ما اختلج بصدره من ضيق و هي أعلم بنفسه و ما اعتادت عليها

منها. و كالعادة لم يحصل منها على كلمة فغادر سائلاً إياها أن تتمنى له الصبر و التوفيق.

و بعد مُضي الإسبوع ابتاع لها فطوراً شأنه شأن كل يوم. ثم جلس على صخرته ينتظر داعياً الله بداخله مثلما يفعل دائماً أن تفتح بابها اليوم. و قد كان ذلك اليوم! و كأن أبواب روحه هي ما فُتحت و ليس بابها المهتريء. وتساقطت عبرتان من عينيه مسحهما بظاهر يده ثم رفع يديه يحمد الله على هذا المرحلة التي وصل إليها.

أما عم محسن فكان يهاتفه بين الحين و الآخر يطمئن على صحته ويوصيه بالاهتمام بنفسه. حدث مرة أن هاتف منزل جده يطمئن على والدته و كأن الهاتف يومها كان يقطر حناناً. بقيت تسأل عن حاله و كيف يمضي نهاره و ليله و إلى ماذا انتهى بحثه. سألت عن كل شيء. أمَّا هو فقد أجابها فقط بظواهر الأمور حتى لا يصيبها القلق عليه. و بالطبع لم يخبرها عن طبيعة عمله. بل أخذ يُزيِّن لها الوظيفة التي حصل عليها بأعجوبة في ذلك المكان فقط بسبب أحد معارف والده المُتوفى. أحسَّ بصوتها يختنق بالعبرات و هي تتمنى له التوفيق. و عندما سألها عما يُبكيها أخبرته أنها فقط اشتاقت لرؤيته و توسلته أن يهاتفها بين الحين و الآخر و ألا يقسو عليها بهجرانه لها فوعدها أنه سيفعل.

و هكذا أمضى الأيام بين العمل و الذهاب لدادة سعاد. يخبرها عما يؤرقه بين الحين و الأخر من أمام الباب لا يجرؤ على طلب فتحه و هي ما كانت لتفعل. بالطبع أثار خروجه المنتظم وقت الظهيرة تساؤلات زملائه عن ذلك المكان الذي ما انفك يذهب إليه كل يوم .. فأخبرهم أنه يهتم لأمر امرأة مريضة كانت إحدى صديقات والدته -رحمها الله- ثم انتهى الحديث عند هذا الحد. فصمتوا مُرغمين رغم الشكوك المختلجة بالصدور.

تعرَّف على والد خالد بعد يومين من استلامه للعمل. كان رجلاً وقوراً تحمل ملامح خالد منه الكثير بجبهته العريضة و أنفه المستقيم و عينيه السوداوين الواسعتين. رحَّب بيوسف و أخبره أن خالداً قد قصَّ عليه قصته.. عزاه في عائلته و سأل الله له التوفيق، و أمَّن يوسف على دعائه. وارتاح إليه يوسف و شعر به مشابهاً لعم محسن في طيبته و رفقه.

و أما عن مسألة بقائه بالمخزن فعندما اجتمع المال بيده و رغم إعتراضات خالد المستميتة أجَّر غرفة بأقرب مكان لدادة سعاد حتى يسهل له الاطمئنان عليها بين الحين و الآخر. و مضت الأيام دون جديد حتى أصبحت شهوراً. ما أرقّه خلالها هي أحلامه التي باتت تراوده في الآونة الأخيرة عن عم محسن. كان يصحو منقبض الصدر فيسرع لهاتفته من ذلك الهاتف المحمول الذي ابتاعه لنفسه فيخبره العجوز أنه بأفضل حال فيطمئن

فؤاده لسماع صوته. و ذات صباح و بعد أحد تلك الأحلام المزعجة هاتفه مراراً و لم يُجب. تمكن القلق منه و خشى أن يتحقق ذلك الحلم الذي راوده لأسابيع. أسرع للمخزن يطلب إذناً بالتغيب ليومين يذهب خلالهما للقاهرة لرؤية أحد أقربائه. بذلك اليوم كان والد خالد هو المسئول و كانا قد وطدا صداقة بينهما فسمح له و هو يتطلع لوجهه القَلِق بالذهاب و العودة متى شاء.

و في الظهيرة كان يطرق باب عم محسن، طرق مرات عديدة و لا مجيب. فتذكرمفتاح الشقة الذي أحضره معه، أخرجه من جيب سرواله وفتح به الباب. فوجد ما كان يخشاه.

كان عم محسن مُمدد على أرضية الصالة. هرول إليه يهُزه فلم يستجب. تفقد نبضه بخوف و أسرع يستدعي سيارة الإسعاف. جلس بجانب عم محسن داخلها يطرق عقله دعوات دادة سعاد. و اعتصر الخوف قلبه، خشى أن تكون لعنته طالت عم محسن أيضاً ! و ظل يدعو الله ألا يريه بذلك الرجل الطيب مكروهاً. و عندما وصلوا للمستشفى تم نقل عم محسن لغرفة الطوارئ. لحق به الطبيب و وقف يوسف بالخارج يدعو الله أن يُنجيه. و لم يطل الأمر هذه المرة. رأى يوسف الطبيب يخرج من الغرفة فأسرع إليه يسأله و نبضات قلبه تكاد تصم أذنيه:

- ماذا حدث لعم محسن؟

سأله الطبيب: أتعني العجوز بالداخل ؟

- نعم.

- هل أنت ابنه؟

- أنا أحد أقربائه. و هو بمثابة أب لي.

- الحمد لله لم يحدث له شيء.. لو كان تأخر قليلاً لربما كان تأذى.. فقد انخفض ضغط دمه بشكل كبير.. لكنه الآن بخير الحمد لله.

و سأله يوسف بقلق:

- و ما سبب ذلك الانخفاض؟

- قد يكون أهمل طعامه.. أو سمع خبراً لا يسره.. الأسباب عديدة كما أن لعمره دور كبير في الأمر.. يجب عليكم الاعتناء به و مراعاة صحته أكثر.

و تم نقل عم محسن لإحدى الغرف. دفع يوسف رسوم العلاج ثم ذهب يطمئن عليه. طرق الباب و دخل. و كان عم محسن قد عاد إليه وعيه و علّق الطبيب له محلولاً. و عندما رأى يوسف ابتسم بوهن قائلاً:

– متى عدت؟ لقد علمت أنك من أحضرني إلى هنا من الممرضة. أخبرتني أن علي الاهتمام بصحتي فولدي الشاب يتآكله القلق عليّ.. سألتها كيف يبدو ذلك الشاب فأخبرتني.. علمت حينها أنه أنت.. شكراً لك بني.

– حمداً لله على سلامتك عم محسن.. لقد كدت أفقد عقلي عندما رأيتك ممدداً بلا حراك..

– أنا بخير لا تقلق.. كيف حالك أنت؟

نظر إليه يوسف بامتنان بالغ فحتى و هو يرقد طريح الفراش يفكر به. لامس ذلك قلب يوسف المضطرب. و كأنما كان حديثه الرفيق إيذاناً للمشاعر المضطربة بقلبه منذ أن شاهده مُلقى على الأرض فاستند برأسه على الفراش ممسكاً بيد عم محسن بقوة و تساقطت عبراته. عندما رآه ممدداً خشى أن يفارقه هو الآخر، خشي أن يكون هو السبب بما يمر به. أصاب فؤاده القلق على اليد الحانية التي ربتت عليه و قادته للنور بعدما كان يغوص بقعر الظلمات حتى ألف البقاء فيها. أدرك الرجل خوفه فقرب يده الأخرى منه و بقى يربت على كتفه و يبثه عبارات التشجيع و الأمان والاقرار بسلامة جسده و نفسه. و هدأ يوسف بعد حين ثم بدأ يعاتبه برفق:

- لما لم تهتم بصحتك، ألم تعدني بكل مكالمة أنك ستفعل.. أرجوك عم محسن لا تجعلني أقلق عليك.. لا أعلم ماذا سيصيبني إذا لا قدر الله أصابك سوء!

ثم تذكر ابنته التي لم يرها من قبل.. شعر بالحنق عليها فقال بحدة:

- و أين ابنتك؟ ألا تسأل عنك! سأهاتفها لتأتي.

- لا يوسف.. لا داعي.. ترى أني أصبحت بخير.

- لكن عليها أن تعلم لتهتم بك أكثر.. تعلم أن والدها لم يعد شاباً.. آسف عم محسن لم أقصد شيئاً.

- أعلم بني.. لكني حقاً أصبحت بخير.. سأهاتفها عندما أعود للمنزل.. عُد أنت لعملك و لا تقلق سأكون بخير.. أعدك بذلك.

- لن أذهب لأي مكان حتى أطمئن تماماً أنك أصبحت بخير.

قالها يوسف بنبرة مقتضبة أنبأت عم محسن أنه لا داعي للنقاش فقد حسم الأمر. و عَلِمَ عم محسن فاستسلم في صمت. و بعد برهة خاطبه:

- إذن متى سأخرج؟

- عندما ينتهي المحلول المعلق بذراعك.. لقد أخبرني الطبيب بذلك.

نظر عم محسن للمحلول قائلاً:

- حسناً كاد ينتهي.

ثم عاد للمنزل مستنداً على ذراع يوسف. قاده يوسف لغرفته و وضعه بالفراش و دثره بالغطاء ثم ذهب للمطبخ يعد له الطعام الذي أوصى به الطبيب. و بعدما أعده عاد للغرفة ليوقظه. و قبل أن يلفظ باسمه لمح هاتفه على المنضدة المجاورة له. نظر إليه ثم التقط الهاتف و خرج للصالة. بحث به حتى وجد رقمها. ضغط زر الاتصال فأجابه صوت أنثوي متلهف:

- أين كنت يا أبي؟ لقد قلقت عليك.

- أنا يوسف.

أجابها باقتضاب.

- مرحباً أستاذ يوسف.

ثم عادت تسأله بقلق: لكن أين أبي؟ هل هو مريض؟

- عندما أتيت كان مُلقى على الأرض فاقداً الوعي.. ذهبت به للمستشفى و قد عدنا منذ ساعة.. لقد أصبح بخير للآن.. لا أعلم متى قد يمرض مجدداً، و أنا لا أستطيع البقاء معه طويلاً للأسف.

ثم أكمل بحدة:

- لذا أرجو منكِ تخصيص وقت أطول له بحياتكِ.. فقد شاخ جسده و وهن عظمه.. لو كان بيدي لكنت قضيت ما تبقَّى من حياتي بخدمته..

فهو منحني ما لم يمنحه أقرب الناس لي.. و لكن للأسف لن أستطيع بهذه الفترة.. لذا أرجوكِ اهتمي به على الأقل حتى أعود للبقاء معه.

استمع لنحيبها على الجهة الأخرى قبل أن تجيبه باقتضاب:

- شكراً لما فعلت لأجله.. سآتي على الفور.

أنهى المكالمة. ثم عاد لغرفة عم محسن و أعاد الهاتف مكانه و أيقظه برفق:

- عم محسن! استيقظ لتتناول طعامك.

فتح عينيه بوهن:

- لقد أتعبتك معي يا يوسف.

- ليس هناك أي تعب.. فقط تناول الطعام لتسترد صحتك.

أجلسه و عدَّل من وضع الوسادة خلف ظهره ثم وضع أمامه صينية الطعام فبدأ يتناول منها مادحاً طهو يوسف. و بينما كانا جالسين رن جرس الباب. تسائل عم محسن عمن يعرف يوسف هويته جيداً. ترك الغرفة متجهاً لفتح باب المنزل لها. و تمكَّن أخيراً من التعرف على من لا ينفك عم محسن عن ذكرها ليل نهار.. كانت فتاة متوسطة الطول تبدو بمنتصف الثلاثين من العمر ذات بشرة خمرية، و ترتدي حجاباً. لم تكن تشبه العجوز في شيء ففكر يوسف أنها بالتأكيد تشبه والدتها المتوفاة. ألقت عليه السلام

وعرَّفت عن نفسها فأفسح لها الطريق و دخلت مباشرة لغرفة والدها. وعندما اطمأن لوصولها أراد منحهما بعض الوقت معاً فغادر المنزل مُغلقاً الباب خلفه و هو يستمع للوم الفتاة لأباها:

- أهكذا يا أبي! ألم أتوسلك مراراً للعيش معي...

ثم انقطع الحديث عنه. ترجل درجات السلم يعيد على ذهنه ما حدث. يدرك أنه قسا عليها عندما لامها على إهمالها لوالدها. حتى أنه اتهمها بالعقوق بينه و نفسه و لم يكتف بل لَمَّح لها بذلك أثناء محادثتهما. نصَّب نفسه قاضياً و حاكمها دون معرفة و لو القليل عن حياتها. فقط لأنه يحب عم محسن! لكن من سيلومه هو؟! يدرك أنه مُذنب مثلها بل و أكثر. ربما حينما أظهر لها الغضب أراد أن يخبرها أنه غاضب من نفسه هو، و ما هي إلا أداة نفَّث بها عن ألم روحه. اتهمها بالعقوق! و هو! أكان بارَّاً؟! ألم يلتفت بظهره لوالدته في أشد لحظاتها حاجةً ليد تستند عليها! ألا يزال يتجاهلها حتى الآن! لكنه لم و لن يقصد تجاهلها أبداً. هو خائف منها و من نفسه أن يقترب فيتشبث بالبقاء. أن يتحدث فتذوب روحه شوقاً لقربها فيهرول إليها متناسياً كل شيء. و لكن ماذا سيحدث حينها؟ ماذا سيفعل إذا أصابها مكروه و هو إلى جوارها! نعم بات يؤمن بالقدر و أن كل شيء مُقدَّر منذ الأزل. لكن هناك ذلك الخوف بصدره يمنعه من المجازفة! يدرك

أنه لو أصابها سوء سيُظلم العالم بوجهه و لن تشرق شمسه أبداً حتى يلحق بها.

"هارب" هذه أفضل كلمة قد تصف حاله. هرب منها و من نفسه ومن عم محسن. من كل فرد و كل شيء. يكفيه أنه يدرك أنها بخير في كنف جده. لقد عاهد الله على الفراق حتى تستقيم حياته، حتى يؤمِّن لها حياة خالية من الدعوات المتوسلة بالانتقام ليل نهار. حتى يرى إلى أين سيقوده قدره مع ضحيته. بعد ذلك سيعود. نعم سيعود ليحيا بكنفها ما تبقى من عمره. فقط عليه الانتظار حتى ذلك الحين و ليدعو الله أن ترفق به دادة سعاد.

سار هائماً لا يعلم لنفسه وجهة. و توسله قلبه أن يكون باراً و لو ليوم واحد و يذهب للاطمئنان عليها. أن يستنشق رائحتها، و يستمد منها قوةً تحثه على المواصلة بحياة لم يعد يعبأ بها! و أطاع توسلات نفسه فكان عند بوابة فيلا جده يضغط الجرس فهرول الحارس لفتحها له.

استقبله جده بعناق حار. متسائلاً عن أخباره كل تلك الشهور الماضية. طمأنه يوسف بابتسامة واسعة. متعثراً مرة أخرى بكذبه عن الحياة المرفهة التي يحياها بتلك البلدة. و أظهر جده تصديقاً على حديثه الكاذب. لم يعلم و جده يبتسم إليه أهو حقاً اقتنع بأكاذيبه أم أنه فقط يمرر الأمر له.

فجده كان مرآته التي تعرفه أكثر من الجميع. و عندما شعر بنظرات جده تحيط به خشى أن يكتشف أمره فغير مجرى الحديث:

- أين أمي ؟

أجابه جده بذات الابتسامة على محياه:

- والدتك بالأعلى.. اذهب لتراها فهي دائمة السؤال عنك.

أصابه القلق عليها ففي المرة الماضية أسرعت إليه بمجرد أن علمت بحضوره:

- هل هي مريضة؟

- لا أبداً.. هي بخير تماماً.. و أفضل مما كانت يوماً.. اصعد لتراها.. سأكون بالحديقة.. لا ترحل قبل أن نتناول العشاء معاً.

ثم ربت على كتفه و تركه وحيداً. نظر للأعلى متنهداً قبل أن يصعد درجات السلم. خشى بكل خطوة خطاها أن يفتح باب غرفتها فيجدها طريحة الفراش! لكن جده نفى الأمر. إذن لما الخوف! طرق الباب برفق فأذنت باسمه للدخول. فتحه ببطء و كانت المفاجأة التي وقف مشدوهاً لها لدقائق و ليس للحظات.

- أمي!

الفصل العاشر

عندما فتح باب غرفتها كان يتوقع رؤيتها إما ممددة على فراشها أو تتصفح إحدى مجلاتها المفضلة على الأريكة، و لكن ما رآه كان مخالفاً تماماً لأي توقع قد يطرأ على ذهنه. كانت والدته جالسة أرضاً على سجادة الصلاة! كانت ترتدي لباساً فضفاضاً و تحمل بيدها مصحفاً تقرأ منه. وعندما فتح الباب و رأته جامد كالتمثال أدركت دهشته و جميع الأسئلة التي تتصارع داخله. وضعت المصحف على المنضدة المجاورة و دعته للدخول:

- تعال يا يوسف.. لا تقف هكذا.

أطاعها بصمت فكان يجلس على السجادة جوارها.. ربتت على كفه قائلة:

- كيف حالك حبيبي؟

كان قلبه مأخوذاً بمشاعر جمة ذهول و فرح، رضا و شكر لله أن منَّ على والدته بالهداية. و طغت مشاعر الفرح فوق الجميع فسألها و البسمة ترتسم على شفتيه:

- منذ متى أمي؟

أحس بتعثرها في الرد. أبعدت عينيها عن عينيه المتلهفتين تحاول استجماع حروفها المبعثرة ثم أعادتهما إليه قائلة:

- منذ ما يقرب من شهر.

- و السبب؟

- ما هذا السؤال يا يوسف! إنها إرادة الله و أنت أفضل من يعلم!

نعم هو حقاً أفضل من يعلم!

و دون مقدمات ارتمى بحضنها، و تساقطت دموعه على خديه قائلاً بسعادة:

- الحمد لله أمي.. أنت لا تعلمين مدى سعادتي.. هذه أول مرة أختبر بها لذة الفرح منذ سنوات.. الحمد لله أني أتيت و رأيتكِ.

ثم ابتعد عنها قليلا يمسح عبراته. تطلع إليها، أحس أنها تغيرت كثيراً عن ذي قبل. دعا الله بقلبه أن يثبتها على الطاعة. يكفيه أنها أصبحت ملجأ يستمد منه الأمان و الثبات كلما دفعته الظروف للاستسلام. قصَّا على بعضهما ما حدث في أشهرهما الماضية دون التطرق لجانب المعاناة التي مر بها و التي لا يعلم عنها أحد إلا عم محسن و بالطبع دادة سعاد!

و بعدما انتهى الحديث بينهما استأذنها للجلوس مع جده بالحديقة. تشبثت به:

- هل سترحل مجدداً؟!

- نعم أمي.. عليّ الرحيل فأنا مرتبط بعملي هناك، لن أستطيع التأخر عليه أكثر.

- و سعاد؟! هل سامحتك؟

- كلا.. ادعُ لي أمي.. سأنتظركِ بالأسفل.

- حسناً بُني.

و غادر الغرفة متجهاً لجده، جلسا يتحدثان عن مختلف الأمور حتى حان موعد العشاء. تناول الطعام معهما ثم استأذنهما بالمغادرة. أرسلاه بصعوبة بعد محاولات والدته المتواصلة لثنيه عن عزمه و إبقائه إلى جانبها. كان الليل قد حلَّ منذ ساعات فاعتقد أن ابنة عم محسن قد عادت لمنزلها ودعا الله داخله أن يكون اعتقاده صحيحاً فهو يريد الاطمئنان عليه قبل رحيله. وقف أمام باب الشقة و ضغط الجرس. مرة فثانية و لَمَّا لم يفتح له أحد تيقن بمغادرتها فأخرج المفتاح من جيب سرواله و فتح الباب فرأى عم محسن مستنداً بيده على الطاولة الموضوعة بالصالة يحاول الوصول بضعف للباب. أسرع يسنده قائلاً:

- لِما نهضت من فراشك؟

- إعتقدت أنك أضعت مفتاحك.. فنهضت لأفتح لك.

- لقد أردت فقط التأكد أنك بمفردك.

- آه.. تقصد ابنتي.. لقد حاولت كثيراً هي و زوجها المبيت معي.. لكني أرسلتهما للمنزل و طمأنتهما أنك ستهتم بي.

- لِما لا تذهب للبقاء معها عم محسن؟ أليس ذلك أفضل.. ستهتم بك.. و أنا لن أصبح قلقاً.

- يا بني أنا أحب البقاء بمنزلي.. أشعر أني لو غادرته ستغادرني روحي.. لا تقلق سأتدبر أمري و هي و زوجها يمران علي بين الحين والآخر.. سأكون بخير إن شاء الله.

ثم سأله بعد أن استقر بالفراش:

- هل تناولت عشاءك؟

- نعم أكلت مع جدي و أمي.. هل أحضر لك الطعام الآن؟

- لا لقد حضَّرته ابنتي لي.. اذهب لترتاح فأنت لم تجلس منذ الصباح.. أنا حقاً لا أعلم كيف أكافئك بني.

- أنا أرد جزء لا يكاد يُذكر من فضلك الذي لن أنساه ما حييت عم محسن.. سأبقى حتى أعطيك الدواء ثم سأخلد للنوم.

- يا يوسف...

- لا تحاول فأنت تعلم الإجابة.

آثر العجوزالصمت على المحاولة المحتمة بالفشل! أطفأ يوسف ضوء الغرفة ليساعد عم محسن على الاسترخاء. ذهب ليجلس بغرفته. أنهى صلاته ثم تطلع للوقت بالساعة المعلقة فوجد أن موعد الدواء قد حان. عاد لغرفة عم محسن و أيقظه ثم أعطاه الدواء. و خلد كل منهما بعدها للنوم. وبصباح اليوم التالي أعطاه يوسف دواءه و اطمأن على صحته ثم ودعه وغادر عائداً للقرية كاتماً صراخ قلبه المتشبث بالبقاء قرب الأهل والأحباب.

و أول خطوة خطاها للقرية كانت تّجاه كوخ دادته. أحضر بطريقه إفطاراً كما هي عادته و خاطبها بعد أن وضعه أمام الباب:

- لقد عدت دادة سعاد.

ثم غادر لعمله. مضت أيامه على منوالها بين ذهابه لعمله و المرور على دادته و سفره المنتظم كل شهر لرؤية عم محسن و والدته. و بيوم بعد عودته من إحدى رحلاته للقاهرة عرج كما يفعل دائماً على منزلها. طرق الباب الذي يعلم أنه لن يُفتح لأجله يوماً و أخبرها كما يفعل بكل مرة:

- لقد عدت دادة سعاد.

ثم التفت ليغادر المكان. و لمفاجأته التي كادت توقف نبضات قلبه فُتح الباب! أعاد الالتفات إليه مذهولاً لكن لم تكُن هي كما تمنَّى بل كان ذلك الصبي المدعو أنس.

- خالتي مريضة و لا تجيبني.. لقد كنت ذاهباً لإخبار أمي عندما طرقت الباب...

و لم ينتظر لسماع المزيد. نحاه بجانب الباب و اندفع للداخل. رآها ممددة على فراشها تئن بوهن. ناداها و هو يقترب منها:

- دادة سعاد.. ماذا بكِ؟! كيف تشعرين؟

كاد قلبه يتمزق قلقاً و هي مغمضة العينين لا تجيبه. و عندما تتابعت أسئلته عليها رمشت بجفنيها ثم عادت لسكونها فعلم أنها تستمع إليه.. وجّه حديثه للصبي قائلاً:

- ابق هنا و لا تتركها حتى أُحضِر الطبيب.

أومأ الفتى برأسه قائلاً:

- حاضر.

و غادر يوسف على عجل ثم عاد بعد برهة و معه الطبيب. فحصها قائلاً و هو يضغط زر الاتصال بهاتفه:

- إنها بحاجة للذهاب للمستشفى.

- هل حالتها بذلك السوء.. أرجوك أخبرني ما بها.

- لا شيء مؤكد.. هي مصابة بحمى شديدة.. و أريد التأكد من سببها و المستشفى هي أفضل مكان لذلك.. سأهاتفهم لإرسال سيارة الإسعاف.

و نُقلت دادة سعاد و معها يوسف للمستشفى. و بعد إجراء التحاليل اللازمة لها تم وضعها بغرفة حتى الاطلاع على النتائج. كانت ترقد في حالة بين الوعي و اللاوعي تهمهم بحروف متقطعة من حين لآخر. و جلس يوسف على مقعد بجانب فراشها يتلو القرآن داعياً الله ألا يكون الأمر جللاً و ألا يُرِهِ بها سوءاً. دعا أن تعود لسابق عهدها حتى و لو كانت ستلعنه بكل لحظة! و أضحت الحروف المتقطعة التي تخرج من فمها تتجمع معاً. التفتت برأسها إليه قائلة بوهن:

- لماذا؟!

لم يسمع سؤالها في البداية. ظنه إحدى الهمهمات المُتعبة التي تصدرها فاستمر بتلاوته. سعُلت ببطء ثم رفعت صوتها قليلاً و هي تعيد عليه سؤالها:

- أسألك لماذا؟!

- هل تخاطبينني دادة سعاد؟

سألها بقلق و هو يُقَرِب مقعده أكثر من فراشها ليسمعها بوضوح:

- آسف لم أسمع ما قلتِه.

و أعادت سؤالها المبهم للمرة الثالثة:

- أسألك لماذا؟

- لا أفهم!

- لماذا لا تبتعد عني.. لماذا لا تتركني لحالي.. أنت قضيت على طفلتي.. و أنا دعوت الله فاقتص لها.. لنقل أننا أصبحنا متعادلين.. إذن لماذا بحثت عني بهذا الاصرار و لا زلت تهتم لأمري؟! كل ذلك لأجل أن أوقف دعواتي عليك.. أليس كذلك؟!

ثم سحبت نفساً عميقاً محاولةً السيطرة على حروفها الواهنة وأكملت:

- لا تقلق لقد أوقفتها.. هل أنت راضٍ الآن؟ فلتبتعد عني إذن!

قالت جملتها الأخيرة بحدة بقدر ما ساعدتها صحتها العليلة.

- لا أريد.

صرخت به بصوتها الواهن:

- ألا تفهم! أنا لا أطيق سماع صوتك و أحمد الله أني لا أستطيع رؤيتك! كلما شعرت بوجودك يعتصرني الألم.. أنت لا تمنحني فرصة واحدة للشعور بالسلام.

لم يستطع أن يخبرها أنه الآخر يعتصره الألم كلما فكر بها. يشعر بالعذاب يكتنفه كلما أقر بضعفها و رأى إثمه ماثلاً فيها. لم يستطع أن يخبرها أنه كلما رآها تذكَّر نظرات طفلتها تلك الليلة التي قضت على حياة الجميع ثم نظرتها له بذلك اليوم الذي طُردتا به دون رجعة. كلما رآها تمثلت أمامه معاناة شقيقته و جسد والده المسجى على فراش الموت و ألم والدته و تشتته في البلاد. و لكن بما سيخبرها! إن حاول أن يفعل سيكون فقط كمن يحاول إشعال حريق يجاهد للخمود. و لَمَّا وجدته غارقاً بصمته استأنفت باقتضاب:

- لقد أخبرتك أني أوقفت دعائي.. فلتغادر إذن!

- لا أستطيع.

سألته ساخطة على عناده:

- لماذا لا تستطيع؟!

تجمَّع كل الحزن و الألم الماضيان فوق رأسه. مر أمامه شريط شهوره المنصرمة. أراد أن يُوقف تدفق سيل الذكريات فصرخ يجيبها:

- لا أستطيع الذهاب و تركِكِ هكذا.. ليس بعد أن علمت بما حل بكِ بسببي.. لا أستطيع أن أحيا و أنا أعلم أنكِ وحيدة بهذا المكان مريضة كل يوم و ليلة.. فلتلعنينني كما شئتِ.. أنا لا أستطيع المغادرة!

و لم ينتظر إجابتها بل أسرع للخروج من الغرفة يريد استنشاق الهواء. يشعر أنه إن بقى سيختنق. التقط أنفاسه لبرهة أمام الغرفة المغلقة ثم عرج على الطبيب ليعرف أخر التطورات بشأن تحاليلها. و أخبره الطبيب أن:

- جسدها بخير.. صحيح أنه هزيل بدرجة ملحوظة و ينقصه العديد من العناصر الهامة لكنه بخير.. حتى أنه يمكنها المغادرة الآن.. ربما يكون سبب الحمى إجهاد.. أو مشكلة نفسية تمر بها.

شكره ثم اتَّجه لدفع فاتورة المستشفى. خرج و ابتاع لها بعض الطعام ثم عاد للجلوس على المقعد المجاور لها. و ناداها برفق:

- دادة سعاد.. استيقظي لتناول الطعام.. دادة...

فتحت عيناها فرأى آثار دموع بهما.. آلمه حزنها إضافة لمرضها.

- لِما تبكين الآن؟! هل تبغضين وجودي لهذه الدرجة؟

- ألم تكن لتفعل؟!

- بلى دادة.

تمتم مطأطيء الرأس.

- أعدكِ أنه عندما تتحسن صحتك سأبتعد عنك قدر ما أستطيع.. لكن لا تحرميني من الاطمئنان عليكِ بين الحين و الآخر.

- أتعلم ما اليوم؟!

تطلع ببصره إليها يحاول تذكر حدث معين يجعل لليوم أهمية عن غيره من أيام العام.. و لمَّا طال تفكيره و شعرت بتعثر إجابته، قالت:

- إنه ذكرى وفاة شمس و طفلها.

و عَلِمَ سبب مرضها! فقط لو كان بإمكانه التبخر بذلك الوقت لفعل! تمنى أن تنشق الأرض و تبتلعه داخلها.. أو أن توافيه المنية بهذه اللحظة فتُشفى القليل من جراحها.. ساد صمت طويل بينهما قطعته بقولها:

- أنا لا أعلم ما اليوم و لا أستطيع رؤية التقويم كما ترى.. و لكنها الأيام أعدها منذ رحيلها و اليوم هو الثلاثمائة و خمسة و ستون منذ رحيلها.. كل يوم منهم مرَّ عليّ كأنه الألف عام أو يزيد.. أعدهم واحداً تلو الآخر و أتأكد من أنس فيؤمِّن على حسابي.

و عاد السكون يخيم عليهما قبل أن تأمره بحدة:

- أعدني للمنزل.

- ستعودين بالغد.. فقط أمضي الليلة هنا لأتأكد من سلامتك.

- قلت أعدني إلى المنزل.. أنا بخير.. لا شيء بذلك الجسد الفاني.

ثم حاولت النهوض متعثرة بالفراش.. أشفق على محاولتها اليائسة:

- حسناً دادة.. انتظري حتى أساعدك.

- لا تقترب.. أمرته بحدة: استدع لي إحدى الممرضات.

استدعى ممرضة كما طلبت. أسندتها الممرضة حتى أوصلتها خارج المستشفى فأسرع لإيقاف سيارة أجرة تُقِّلهما، أجلستها الممرضة داخلها وجلس هو جوار السائق. أعطاه عنوان منزلها فانطلق بهما. اطمأن على عودتها لبيتها ثم عاد لغرفته.

و وفى بوعده الذي قطعه على نفسه تلك الليلة. فاختفى عن الأرجاء كما أرادت أو كما ظن هو أنه ابتعاد. لم يعد يذهب إليها كل يوم كما اعتاد، بل اقتصر ذهابه على يوم الجمعة من كل إسبوع. يذهب إليها و يطرق الباب فتفتح له بعد التعريف عن نفسه. يدخل واضعاً ما بيديه برفق جانب الباب حتى لا تسمع جلبة الأكياس البلاستيكية التي أحضرها لها، لكنها كانت تفعل بكل مرة! و بكل مرة تأمره أن يُعيد ما أحضر فهي لا تقبل الصدقات! فلديها أختها و زوجها يحضران لها ما تشتهي!

– أنا لا أتصدق عليكِ دادة.. أنتي والدتي و أنا أحب أن أحضر لكِ شيئاً و أنا قادم.

– إذن لا تأت!

و بكل مرة يتغاضى عن تلك الإهانات و الرفض الموجه له و يستمر بسؤالها:

– كيف أصبحتِ دادة؟

- بخير.

- هل ترغبين بشيء أفعله لكِ؟

- لا.

إجابات مقتضبة لاذعة هي ما تجيبه بها. تخبره بصراحة لا تحتمل الشك أن وجوده هو أخر ما قد ترغب به فيُذعن لتلك التلميحات الواضحة ويحقق لها رغبتها الكامنة:

- حسناً دادة.. أراكِ الإسبوع المقبل.. إذا احتجتني أرسلي إليّ أنس.. هو يعلم مكان عملي.. إلى اللقاء.

و يسود الصمت فيخرج مطأطيء الرأس خائب الرجاء كما حضر.. ويحفز نفسه قائلاً:

- على الأقل أصبحت تفتح لي الباب!

و تمضي الأيام و تتقلص زياراته الإسبوعية لها حتى تكاد تصبح شهرية. لم يكن ذلك انشغالاً منه أو التهاءاً بعمله. لا أبداً فهو كان يجلس غالبية وقته بغرفته يتطلع لسقفها الباهت. إنما كان بقاؤه نتيجة ما كان يواجهه من اعراض و نفور من جانبها، نتيجة رفضها المستمر له مرة تلو أخرى. كان ينأى بنفسه عن الذهاب لمكان هو أخر المرغوبين فيه. و ذات

يوم و هو يتحدث مع خالد بالمخزن وجد من يجذبه من ملابسه، نظر لجانبه فوجده أنس يقول بصوت لاهث:

- خالتي تطلب رؤيتك.

أصابه القلق:

- ماذا بها؟

- هي طريحة الفراش.. لكنها طلبت مني إحضارك.

ترك العمل و أسرع يسبقه. تسارعت خطواته حتى باتت عدواً و هو يتجه إليها. و دار داخله ألف سؤال عما يكون قد ألَّم بها. دادة سعاد تطلب رؤيته و هي التي ما كانت تطيق سماع صوته! فتح الباب ينظر إليها و هي راقدة بفراشها. لام نفسه، ليت قلبه لم يتألم من نفورها منه. ليته ما ابتعد فها هي ممددة لا تقوى على الحِراك و هو لا يعلم عنها شيئاً. أسرع يرتكز بركبتيه أرضاً جوار رأسها. هزَّ جسدها برفق:

- لقد حضرت دادة.. ما بك؟ بماذا تشعرين؟

و لَمَّا وجدها لا تجيب أسئلته المتلهفة.. نظر لأنس بقلق قائلاً:

- أنا لن أنتظر هكذا.. سأذهب لاستدعاء الطبيب...

تصلَّب لسانه و هو يشعر بأصابعها تضغط بحزم على يده المجاورة لها.. التفت إليها:

- دادة.. أنت مستيقظة؟! لا تجهدي نفسك.. سأذهب حالاً لاستدعاء الطبيب ليرى...

- لا تذهب.

- سأعود على الفور.. يا إلهي تبدين بحالة سيئة.

- أنا بخير.. فقط استمع إليّ و لا تُرهقني.. أريد التحدث معك.. أنس.

- نعم خالتي.

أخبرته متجهة بوجهها ناحية مصدر صوته: اتركنا قليلاً حبيبي..

أطاعها و خرج من الكوخ. و لم يتبق إلا هو و هي، فسحب مقعداً صغيراً جلس عليه. و ساد السكون أرجاء الكوخ قبل أن تمزقه بقولها بعد برهة:

- لابد أن الفضول يتآكلك الآن.. متسائلاً كيف أن دادة سعاد التي كانت ترفض سماع صوتك من قبل تطلب حضورك الآن.. سأزيل عنك ذلك الفضول.

أصدرت تنهيدة قوية.. قبل أن تستأنف:

- لقد حان موعد رحيلي.

الفصل الحادي عشر

ما هذا الذي تقول؟! عن أي رحيل تتحدث؟! خاطب نفسه قبل أن ينهرها قائلاً بحدة:

- دادة لا تتحدثي بهذه الطريقة.. سنذهب للمستشفى و ستكونين بخير.

- أنا أدرى بروحي منك.. كل ما أطلبه منك أن تتركني أُنهي حديثي.. فلا أعلم متى ستتاح لي الفرصة مرة أخرى.

التقطت أنفاسها و أكملت:

- كما أخبرتك.. أشعر بدنو أجلي.. للحق أنا أشعر بذلك منذ زمن.. لنقل تحديداً منذ ذلك اليوم الذي عرفت به بخبر حمل شمس.. ربما حينها لم يكُن شعوراً مثلما كان رغبة ملحة بالرحيل.. منذ ذلك اليوم الذي رأيت فيه السلطة تطأ كل القيم و المباديء التي لطالما آمنت بها منذ الصغر.. تغلبت على الشرف و الأخلاق و الرحمة و الضمير.. يومها تمنيت وأدنا نحن الاثنتان.. حينها و للمرة الثانية بعد أن غدر بي زوجي في الأولى أدركت جيداً أن الحياة قاسية بل شديدة القسوة على مثيلاتي ممن لا يملكن شيئاً..

يومها رحلت أصب لعناتي فوق رءوس الجميع.. كنت ألعن العالم أجمع مع كل آهة من آهاتها المتوجعة لألم أو قيء يمزق معدتها.. مع كل دمعة انحدرت من عينيها و أسرعت لمسحها قبل أن أراها.. مع كل صرخة فزِعة كادت تمزق حلقها بعد منتصف الليل و هي تتذكر تلك الليلة المشئومة.. مع كل إشاعة أطلقها علينا البشر ناعتين إيانا بالعاهرتين.. مع كل نظرة اشمئزاز وجهها إلينا القريب قبل البعيد.. و مع صرختها الأخيرة التي لايزال يتردد صداها بأذني حتى هذه اللحظة و كلماتها المتقطعة من صرخات ألم مخاضها المبكر و هي تتوسلني لمسامحتها.. و هي تخبرني بأحلامها التي تكسرت على صخور واقعها المرير.. و هي تردد عليّ ما أنشأتها لأجله.. أخبرتني يومها أنها حاولت بكل ما أوتيت من قوة لكنها لم تستطع دفعك بعيداً عنها! أخبرتني أنها آسفة بحقي لأنها أخلفت وعدها بالحياة الكريمة لي عندما تكبر.. هي ما استطاعت أن تكبر! تلك البلهاء على ماذا أسامحها وهي لم تختبر تلك الفرصة للبقاء! تلك البلهاء أنفقت الكثير من الوقت والجهد و هي تفكر بمغفرتي لها! ما ذنبها الذي توسلت طويلاً لأجله؟ حقاً لقد كانت مُذنبة! ربما كان ذنبها الوحيد أن والدتها المتهورة قررت ترك المحافظة بأكملها و الهجرة لمكان لا يعرفها به أحد لتهرب من النظرات

الشامتة بها بعد هروب الزوج.. ربما كان ذنبها الوحيد أنها وُلدت لي.. أنها بقيت معي و لم ترحل مع أبيها.. أو ربما كان ذنبها الوحيد أنها جميلة!

بللت عبراتها الوسادة. لم تمتد يدها لمسحها، ربما لم تدرك أنها تبكي في خِضَم مشاعرها المتلاطمة. و استرسلت بعد أن ابتلعت ريقها:

– و توفيت مُنهكة الروح و الجسد و لحق بها وليدها غير مكتمل النمو.. و كأنه يعلن لهذا العالم أنه لا يريده هو الآخر بقدر رفضه له.. آثر الموت على حياة لن تجلب له إلا العار و الشقاء! و بقيت وحدي أقاسي الذكريات و الوحدة.. نصحني البعض بالنسيان و التوقف عن البكاء و إلا سآذي نفسي.. لكني لم أُعِر نصائحهم أدني اهتمام.. هؤلاء متحجري القلب كيف يطلبون مني النسيان و الاستمرار بالحياة.. سخطت عليهم.. اعتزلتهم.. و حدث ما توقعوه بشأني فبعدها بشهور فقدت بصري.. أتعلم يوم أن أظلمت الدنيا بعيناي تمنيت من الله أن يعيده إليّ و يسلبني ذاكرتي.. فعقلي كان على وشك الانفجار.. مرت عليّ أيام كنت متأكدة أني سأفقد صوابي بها.. تمنيت أن لم تكن آلة الزمن خُدعة و أني أستطيع دخولها لأعود بالزمن للوراء.. لما قبل زواجي.. بل لما قبل ولادتي لأمنع كل ما مررت به.. لكنها فقط ضرب من الخيال.. لم يعد الزمن بي و لم يتغير شيء.. و الجراح لا ترحم.. فبقيت كما أنا عالقة في ذلك اليوم الذي غسَّلتها بيداي به..

وانقضت الأيام و صبت روحي للهدوء قليلاً عما كانته.. فالمصيبة مهما عظمت لا تبقى بمرور الأيام كذلك الوقت الذي حدثت به.. نعم لا نستطيع محوها من قلوبنا و عقولنا فتبقى كالشوكة داخل حلوقنا.. و لكنها بمرور الأيام تندمل و نبدأ بالتعايش.. بدأت جراحي بالاندمال بعوامل الوقت فأتيت أنت.. و كأن كل شيء تجسد من جديد و بصورة أشد قبحاً وقسوة عما كانه حينها.. قدِمت لتسألني العفو بعد رحيل شقيقتك ووالدك! كم أنت أناني!

سعلت قليلاً ثم أكملت:

- ستصدقني إذا أخبرتك أنني حزنت لمرض و وفاة ملك مثلما حزنت على شمس! فملك كانت شعاع النور الذي يتخلل ظلام نفوسكم وقد خبا مثلما خبت شمسي! ذنبها الوحيد هي الأخرى أنها ولدت لكم! فلاقت ذلك المصير.. أصابني الحزن عليها لكنه لم يُصبني على والدك.. والدك كان الرجل الثاني الذي خذلني بحياتي -إذا أخرجتك من المقارنة فخذلانك لي لا يضاهيه أحد-.. عندما أخبرته عن شمس توقعت منه تصرفاً مختلفاً.. تعلم أني كنت دوماً أعتبره مثال الشرف و الصدق.. لكني كنت ساذجة كما العادة.. لقد آذاني أكثر من زوجي الهارب.. فعندما تتوقع ردَّاً مختلفاً من شخص بعينه و يأتي ذلك الشخص ليثبت لك أنه فقط كالآخرين و أن

تصرفه سيحاكي تصرفاتهم كذلك تشعر بنفسك و كأنك تسقط من السماء لترتطم أجزاؤك أرضاً فتتبعثر دون رغبةً بجمع نفسك و الوقوف من جديد .. ذلك كان شعوري و هو يدس المال داخل يدي و يأمرني بالتعقل و حل المسألة دون أثر.. فقط بالاختفاء من حياتكم دون عودة.. يومها أحسست بجسدي عارياً.. حينها تمنيت أن تنشق الأرض و تبتلعني داخلها أنا وابنتي.. لكن كما التوقعات لا تنصف أحداً فالأمنيات أيضاً حبال واهية تلقيك أرضاً إذا حاولت التشبث بها.. و رحلت أجر قدماي و ابنتي على مرأى من الجميع.. أجر الذل و الخيبة و فتاة ينمو بأحشائها طفل إنما هو النكبة التي حلت و لازالت ستحل فوق رأسينا.. حينها أدركت أني لا أملك أحداً بجانبي إلا الله و لا أملك شيئاً إلا الدعاء.. و هكذا رفعت يداي أدعو من لن يردني خائبة.. و كانت إجابته سريعة! أما أنت.. السبب بكل ما حدث للجميع.. لم يصبك شيء! أتصدق هذا!

لم يعلم بماذا يجيبها! نعم مقارنة بما حدث للجميع هو يجلس على قمة هرم الصحة و العافية.. لكن إذا دخلت روحه المقارنة فسيكون تحت أنقاضه.

- صدقتِ دادة.. أعلم أني لم يصبني شيء حتى هذه اللحظة إذا جروءت على مقارنة نفسي بكم.. لكنكِ لا تدركين كم تتمزق نفسي

وروحي كل يوم و ليلة.. لا تعلمين بعِظَم عذاب الضمير الذي يحيط بي ويعتصرني داخله.. لا تعلمين كم تمنيت الموت منذ ذلك اليوم الذي رأيت فيه ملك طريحة الفراش تتألم بكل ذرة من جسدها و أنا عاجزٌ لا أستطيع التخفيف عنها و لو بالقليل.. هل تعتقدين أني يمكن أن أنس ما حدث يوماً ؟ أن أحيا حياة طبيعية خالية من الشعور بالذنب، بالسخط، و بالضئالة؟ لن يأتي ذلك اليوم أبداً أقسم لكِ.. ما فعلته ليس بهين حتى يمضي هكذا ومن فقدت أيضاً ليسوا بنكرة لأستطيع محوهم من عقلي.. و أنتِ عذابكِ أمامي لا يضاهيه ألم بقلبي.. أعلم أنك ستسخرين مني.. لكني أقسم لكِ والله يشهد أني أحبكِ أكثر من أمي التي أنجبتني.. أمي التي قاست هي الأخرى الأمرَّين بسببي.. أنتِ لا تعلمين الرهبة التي تكتنفني إذا اضطررت للتعرف على شخص جديد.. حينها كل ما أفكر به "هل لعنتي ستطاله هو الآخر؟" "هل سأفقده؟" أعلم أن كل شيء مقدّر منذ الأزل، لكني لم أصل بعد لدرجة الإيمان التي تخولني بإقرار ذلك.. لا زالت داخلي تلك الشوائب التي تخبرني بأني بالتأكيد السبب بكل ما يحدث من سوء.. أظنني قد أصل لمرحلة الانعزال عن البشر جميعاً إذا تملك مني هذا الشعور أكثر.. أتظنين حقاً بعد كل ذلك أني مؤهل لحياة عادية أو حتى أقل من

عادية! أنت مخطئة دادة.. ليس كل ضرر يكون جسدياً هناك ضرر الروح الذي لا يضاهيه شيء! و أنت اختبرتِ الاثنين و خير من يعلم.

- أعلم بالطبع!

ثم تنهدت بعمق و استرسلت:

- لقد أوقفت دعواتي عليك منذ مدة.

حدثها بهدوء:

- أنا لا أخرج لكِ ما بقلبي لأحصل منكِ على هذه الإجابة.. صدقيني ليس هذا ما سعيت إليه.

- أعلم.. أنا أعرفك يا يوسف أفضل من أي شخص آخر.. بل ربما أكثر من نفسك ذاتها.. و ربما لهذا سمحت لك بالبقاء و لم أرفع سكيناً لأقتلك بيدي.. ما يجعلني أشمئز من نفسي أنها تقلق عليك و تسأل عنك في غيابك حتى أنها دعت الله يوماً أن يُصلح روحك.. و أنت الذي فعل بي كل ذلك! لقد أوقفت دعواتي و هذه الحقيقة التي طلبت حضورك لأخبرك بها.. أليس لديك فضول لتعلم متى كان ذلك؟ أو ما سببه؟

و بقى على صمته.. أحس أنه إن فعل سيُعدّ بنظر نفسه قبلها وقحاً يسعى لتصيد الفرص.. أدركت خزيه فكانت هي المتحدثة:

- سأخبرك دون حاجة للسؤال.. منذ ذلك اليوم الذي أتتني والدتك به.

- ماذا؟! صاح منتفضاً من مقعده.

- لما أنت متفاجيء هكذا؟ ألا أستحق حضورها لرؤيتي؟!

عاد للجلوس قائلاً بنبرة آسفة:

- آسف دادة سعاد.. لم أقصد ما دار بخلدك.. أنا فقط أتعجب من حضورها.. فهي لم تخبرني و لم تسع لرؤيتي.. و كيف لها أن تعلم مكانك؟ أنا حقاً لا أستطيع تصديق أنها أتت هنا بعد ما أخبرتك به ذلك اليوم الذي طُردتي فيه... آسف دادة لا أقصد إحياء الألم مرة أخرى.

- لقد حَضَرَت لأجلك.

- لأجلي أنا؟! كيف و هي لم تخبرني من الأساس!

- أتت تتوسلني لمسامحتك.. أتصدق ذلك؟! والدتك التي أهانتني وطردتني.. أتت تتوسلني.. انظر للأيام تدور فينقلب الذليل عزيزاً والعزيز ذليلاً.

أحس بشماتة تفوح من بين كلماتها.. لا يستطيع لومها فلها كل الحق بذلك.. لا يعلم إن تبادلت الأدوار ماذا كانت لتكون ردة فعله على من عاملوه بتلك القسوة و ذلك التدني! و أكملت:

– عندما طرقت الباب و عرَّفت عن نفسها كذبّت أذناي.. ظننت أن الخرف أصابني.. لكنها عرَّفت مرة أخرى فتأكدت أنه ليس سراباً و أنه ليس أحد أحلام اليقظة.. طلبت مني فتح الباب لتدخل.. تريد أن تراني وتتحدث معي.. رفضت فتحه لها.. فمن هي لأدخلها ملجأي الخاص.. من هي لترى ما أصبحت عليه: هزيلة، كفيفة، بقايا امرأة بائسة.. رفضت.. لكنها قالت أنها ستنتظر.. و أنها لن ترحل حتى تقابلني.. أدركت حينها ممن ورثت صلابة رأسك! لم أصدق أنها بهالها و جمالها و مكانتها و تكبرها وتصرفها السابق تجاهي تريد مقابلتي.. غضضت الطرف عن وجودها.. حتى أني غفوت على فراشي.. لا أعلم إلى متى نمت.. و عندما استيقظت تساءلت إن كانت قد استسلمت و غادرت! وقفت دقائق جوار الباب أتسمع الصوت.. كان المكان هادئاً كما هو الحال دوماً.. فعلمت أنها استسلمت و رحلت.. ففي النهاية إنها السيدة لميس! من أنا لتنتظر أمام بابي! ابتسمت لنفسي بمرارة و قررت الخروج لاستنشاق الهواء جوار الترعة. فتحت الباب و قبل أن أخطو للخارج كانت كلماتها ترن بأذُني:

– قررتِ فتحه في النهاية إذن!

– ألم ترحلي بعد؟

– أخبرتكِ يا سعاد أني لن أرحل حتى أراكِ.

استندتُ على عكازي متجاهلة حديثها.. اتَّجهت أتحسس الطريق حتى الترعة.. و كانت أسرع بديهة منك.. أوقفتني شهقتها و سؤالها المبتور:

- سعاد! هل أصبحتِ...

أكملته لها بسخرية:

- أصبحت عمياء! أليس كذلك؟. نعم.

ثم صرخت بها بحدة:

- هل أرضيتِ فضولك الآن! فلتدعيني و شأني إذن.

سمعت شهقاتها الباكية و هي تخاطبني بكلمات متقطعة:

- آسفة سعاد.. لم أقصد.. اللعنة عليّ.. اللعنة على كل شيء.. أنا.. أنا حقاً آسفة.

تركتها تُخرِج أسفها.. تأسفت لأكثر من عشر مرات قبل أن يسود الصمت المكان.. سمعت خطواتها تتجه ناحيتي.. أحسست بها تجلس قربي.. و كأن ذلك اليوم كان يوم ذهولي اللانهائي.. السيدة لميس تجلس على الترعة جواري! تساءلت إن كانت الساعة قد اقتربت! جلست تعيد على مسمعيّ عبارات الأسف و الإقرار بالذنب لما اقترفته عائلتها بحقي.. أخبرتني بما سمِعتُه منك سابقاً عن المصائب التي حلت عليكم.. لكنها أضافت إليه المعاناة التي مررتَ بها حتى تعثر عليّ.. و المعاناة التي تواجهها

بعملك الذي اضطررت لقبوله فقط لأجل أن تبقى إلى جانبي.. لم تخبرني كيف جمعت كل تلك المعلومات و لم يكُن بي فضول لأسألها.. يمكنك قتل فضولك عندما تلتقيان.. قالت أنه ليست لديك أدنى فكرة عن مجيئها وطلبت مني ألا أخبرك به.. أخبرتني أنها منذ شهر كامل تريد مقابلتي لكن لم توءاتها الشجاعة الكافية.. و التي أخيراً حصلت عليها بذلك اليوم.. اقتربت منيّ.. أمسكت بيدي و رفعتها لرأسها قائلة:

– لقد ارتديت الحجاب يا سعاد.. و أصبحت أصلي.. أنا أحاول تغيير نفسي.. الحمد لله على كل شيء.

ثم تركت يدي لتسقط بجانبي من الدهشة و ربما الصدمة و استرسلت بحديثها:

– كلتانا مثقلة بالجراح يا سعاد.. كلتانا ثكلى.. أعلم أن ذلك لن يغفر لي ما اقترفت بحقكما.. لكن كل ما أرجوه منكِ أن تُحكِّمي قلبك بأم فقدت صغيرتها بعمر يقارب صغيرتك.. لي رجاء واحد منك.. ليس لنفسي.. فأنا أدرك عِظم ذنبي.. رجائي أن توقفي دعواتك على يوسف.. لا أطلب منكِ أن تغفري له.. لا تقلقي لن أثقل كاهلك بما ليس من حقي.. فقط أوقفي دعواتك عليه.. أرجوكِ يا سعاد لقد قاسى الوحدة طوال عمره و أنتِ أعلم الجميع بذلك.. أخشى أن يرفل بها حتى مماته.. لقد بات يخشى قرب البشر

يا سعاد.. أنا أطلب منكِ ذلك لأني أخطأت بحقه مثلما أخطأت بكِ.. أنا لم أكُن يوماً جواره و لا ساعة اهتممت لأمره.. أرجو أن تكوني كريمة معه يا سعاد كما كنتِ دوماً و أن تجودي عليه بصفحك.. أرجوكِ يا سعاد فكري بالأمر.

قالت توسلها الأخير و هي تعيد قبض يدي بأصابعها النحيلة.. انتزعت يدي من يدها و لم أجب توسلاتها بحرف.. بقيت على صمتي.. تتضارب داخل عقلي الأفكار و الهواجس.. أتت تأمرني بالصفح.. و أنا عليّ بالطبع تنفيذ أوامر السيدة.. و ثارت نفسي لمجرد التفكير بالأمر.. و تعجبت من هدوئي و إنصاتي لها.. لربما لو كان هذا الموقف حدث مباشرة بعد وفاة شمس لركلتها بعيداً.. لكنه لم يكُن بذلك الوقت.. و بالتالي لم يحدث رد الفعل ذاك.. الوقت مضى و الأيام تكفلت بتطبيب الجراح.. فكرت.. كلتانا خسرت! و كلتانا مصيبتها عظيمة! لِما العناد و ادعاء قسوة لم تتمكن مني يوماً.. و تأملت بنبرتها و هي تحادثني.. كان هناك شيء مختلف بها.. ليس هذا الصوت هو ما كان يأمرني و ينهاني من قبل.. هذا الصوت الهادىء النبرات ليس صوت السيدة! بالطبع الأيام تُغيِّر.. فما هو الحال بامرأتان اختبرتا مرارة الفقد حتى تمكنت منهما.

- سأفكر بالأمر.. لا أعدك أني سأفعل.. لكني سأفكر.

- شكراً لكِ سعاد.

شكرتني لمرات و هي تضغط على كفاي بامتنان.. و أكملت:

- أعلم أنكِ ستوقفينها يا سعاد.. فأنتِ أحن على يوسف مني.. أعلم أنكِ ستفعلين يوماً!

لم تكن تعلم حينها أني أوقفتها منذ الطرقة الأولى التي طرقتها على بابي لتخبرني أنك هنا.. و أنك تود البقاء إلى جانبي.. أنك تبت و أنك تشعر بعِظم ما اقترفت.. أوقفتها منذ ذلك اليوم! يمكنك عيش حياتك بالطريقة التي تشاء.. لكن نصيحة مني أرجو أن تستمع إليها و لو لمرة.. التزم هذا الجانب الذي اهتديت إليه و لا تعد يوماً لما كنته في السابق.. و أنا أدعو الله أمامك أن يصلح حالك يا يوسف و ألا يُريك مكروهاً فيمن تحب.. يكفينا ما مررنا به في حياتنا هذه.. تكفي رؤيتنا لبعضنا البعض هنا.. أنا سامحتك بحقي حتى لا أضطر للوقوف أمامك يوم الحساب.. هذا ما أرسلت لك لأجله.. هذا كل ما أردت إخبارك به! لقد انتهى حديثي.. يمكنك الرحيل!

ثم أغمضت عينيها و التفتت بجسدها للجهة الأخرى من الفراش.. تخبره بوضوح بضرورة الرحيل في الحال.

- أحضر لكِ الطبيب؟

- أنا بخير.. فقط دع هذا الجسد يرقد في سلام.

جلس قرابة العشر دقائق ينظر إليها.. كلما فتح فمه للحديث خانته شجاعته فيعيد إغلاقه.. علام الحديث و ماذا سيقول! هي أرادت الفراق وإلى النهاية.. زفر ببطء و نهض من مقعده ليرحل.. اتَّجه للباب.. وقف جواره قليلاً قبل أن يستجمع شجاعته و يلتفت إليها قائلاً:

- شكراً لكل ما قدمته لي يوماً دادة.. شكراً لكل الحنان و الحب اللذين غمرتني بهما.. شكراً لكل ما قاسيته لتتفوهي بهذه الكلمات لي.. شكراً لصفحك.. أراك قريباً بإذن الله.

صاحت به بحدة و هي تعيد الالتفات إليه:

- لم يعد هناك داعٍ لمجيئك.. نفِّذ رغبتي الأخيرة و ابتعد.. دعني أمضى ما تبقى من عمري في سلام.. فليكن هذا وداعنا الأخير.

- دادة...

و كانت صرختها هذه المرة:

- أليس من حقي المتواضع تقرير من أريد صحبتهم!

- آسف دادة.. لكِ كل الحق بذلك.

- إذن لا تعد مرة أخرى.. و الأفضل أن تترك هذه القرية نهائياً.

- حسناً كما تشائين.. فقط لا تُرهقي نفسك.

أطاعها مشفقاً على صراخها المنهك.. و خرج منادياً أنس الذي كان يلعب بالخارج لمرافقتها.. طلب منه استدعاء والدته لرعايتها و أسرَّ له بالإسراع إليه إذا زاد مرضها أو أصابها مكروه.. أعطاه خمسة جنيهات وأخبره بابتسامة أن يبتاع لنفسه الحلوى.. أخذها الصبي منه فرحاً و ركض لإحضار والدته.

و لم يمض الإسبوع إلا و أنس كان يجذبه من كم قميصه لاهثاً:

- أسرع يا يوسف.. خالتي لا تفتح لي و لا تجيبني.

جذبه من ملابسه قائلاً: ماذا؟ و أين والدتك؟!

ارتجف الصبي من انفعاله مجيباً بخوف:

- لم أخبرها بعد.. لقد أتيت إليك أولاً كما طلبت منيّ.

تركه يوسف و هرع يعدو حتى وصل لكوخها. طرق الباب بعنف منادياً:

- دادة سعاد! دادة سعاد!

لكنه لم يحصل هو الآخر على إجابة.. دفع الباب بجسده فانفتح. أسرع يهز جسدها المُسجى على الفراش و هو يدعوها باسمها، لكنه لم يحصل منها على شيء. لا إجابة و لا حركة و لا حتى طرفة عين تطمئنه أنها لازالت على قيد الحياة! هاتف الطبيب الذي عالجها من قبل. أقسم عليه بسرعة الحضور

فلم يمض الربع ساعة إلا و كان معه بالكوخ. أخرج سماعته من الحقيبة وجلس على طرف الفراش يتفحص نبضها.

دقيقة مرت و كأنها الدهر. سقط قلبه في قدميه و الطبيب يلتفت إليه ويخبره و على وجهه أمارات الأسف:

- البقاء لله.

الفصل الثاني عشر

- البقاء لله!

كلمتان طرحتا روحه أرضاً. نظر للطبيب بذهول، كيف ذلك؟ لقد كانت تخاطبه منذ أيام و تأمره ألا يعود إليها. كيف ترحل و تتركه؟ قلبه ليس مستعداً بعد لتحمل مرارة فقدها إلى الأبد. و اتجه لسؤال الطبيب الذي بدأ يعيد أدواته داخل حقيبته:

- ماذا قلت؟!

سؤال مستنكر طرحه عليه و لم ينتظر إجابةً له بل أسرع يهز جسدها ويطالبها بالرد، بالتكذيب، بالعودة، بأي شيء إلا أن تلحق بأخته و أبيه. وتذكَّر! لقد حيا هذه اللحظات لمرتين من قبل! و بهاتين المرتين لم يجبه أحد! و بهاتين المرتين كان هو المخطيء و الأطباء على صواب.

و كان الطبيب يعرف أنس جيداً كونه من أهل البلدة. فانتحى به بأحد جوانب الكوخ و طلب منه أن ينقل الخبر لوالديه فهرول الصبي لمنزله. وعندما استيقن يوسف بوفاتها جلس أرضاً جوار فراشها يبكي. تتراءى أمام عينيه صورها متتابعة: صورتها و هي تمازحه و تطعمه، تنصحه، تطمئن

عليه، و تدعو له.. يتبعها صورتها و هي تبكي ما حدث لفتاتها، طردها، وعودتها بقلب ممزق لتخبرهم بوفاة شمس.. ثم صورتها يوم أن التقاها مرة أخرى و كانت تلك أسوأ الجميع. فقد كانت بها امرأة كفيفة هزيلة لا تقوى على الحراك.. و كأن بين تلك المرأة الأولى و الأخيرة عشرات الأعوام وليس سنوات تُعد على أصابع يده. حقاً الحزن يقتل! و الألم يحفر الندوب عميقاً!

وصلت أختها تملأ المكان صراخاً و عويلاً. تطالبها هي الأخري بالعودة. ثم تفوهت بجملتها التي ملأت روحه أنيناً:

- حبيبتي لقد رحلتِ بالنهاية فأنت لم تستطيعي يوماً الحياة بعد شمس!

ازداد بكاؤه فتطلعت المرأة إليه تحاول تذكر أين رأته من قبل. سألته بعدما مر طيفه بذاكرتها:

- ألست من أحضر لسعاد بقية مستحقاتها؟ ما الذي تفعله هنا حتى الآن يا أستاذ؟!

- إنه يوسف أمي.. لقد كان يهتم كثيراً لأمر خالتي.

كان ذلك اعتراف أنس المتشبث بجلبابها. أعادت النظر إليه بذات التساؤل فهو لم يجبها بعد على سبب بقائه! تحامل على قدميه و سار يجر جسده خارج الكوخ و خارج المكان أجمع قبل أن تتكاثر العيون من حوله

وتتبعها التساؤلات! نأى بنفسه بعيداً حتى رآهم يحملون نعشها متجهين به للمسجد لصلاة الجنازة. تبع المشيعون لا تتوان عينيه عن البكاء. أنهى الإمام الصلاة فاتَّجهوا يحملون جسمانها إلى المقابر. و عندما وصلوا وجهتهم وضعوا النعش أرضاً و تناقلوها على الأيدي حتى أدخلوها القبر و أهالوا عليها التراب. و كان هو يقف بعيداً يشاهد كل ما يجري من موضعه لا يجرؤ على الاقتراب.

انفضَّ الجمع و خلا المكان إلا منه فالجميع توجه لمنزل زوج أختها للعزاء و تناول الطعام. خطا بقدميه تجاه قبرها. ألقى السلام عليها ثم جلس جوار قبرها يبكي قائلاً:

– لقد رحلتِ إلى الأبد دادة سعاد.. لا أستطيع تخيل أني لن أراكِ بعد اليوم! أتمنى لكِ مكاناً أفضل مما حصلتِ عليه يوماً.. أعلم أنكِ كنت تشتاقين للدفن جوار شمس.. آسف لِما انتهى إليه الأمر فذلك خارج حدود تصرفي.. أدعو الله أن تتلاق روحيكما بالجنة.. و أن يثبتكِ الله عند السؤال.. الوداع دادة.

أقام الليل بغرفته يدعو لها بالرحمة و الثبات.. و مع إشراقة شمس الصباح كان يجمع حاجياته للرحيل.. ثم خطَّ خِطاباً لخالد يخبره عن رحيله:

- عزيزي خالد...

كلماتي هذه أتت متأخرة كثيراً فأرجو صفحك.. قبل أي شيء أريد أن أقول لك و للمرة الأولى: شكراً.. شكراً لكل ما قدمته لي منذ لقائنا الأول بالمسجد.. يومها و برغم اعتراضي على الفرص التي منحتها لي كنت طوق النجاة الذي انتشلني من الضياع.. بالطبع لم أخبرك بهذا من قبل لكنك بالتأكيد استشعرته مرات كثيرة.. قد تصدمك كلماتي التالية فتكتشف بي جانباً لم تره من قبل.. هناك ما أريد كشف النقاب عنه قبل رحيلي.. اسمح لي أن أعترف لك أن كل ما أخبرتك به عن نفسي كان مجرد كذبة منمقة احتميت تحت ظلالها لم يكُن في الصدق منها إلا إن والدي حقاً مُتوفىَ و أني شريد بالبلاد.. ما دون ذلك كذب و لا أرى فائدة من قول الصدق الآن أو من التبرير لِما فعلت ذلك! فقد انتهى الأمر وغادرت البلدة بل المحافظة بأكملها و الله وحده يعلم متى ستتاح لنا فرصة اللقاء مرة أخرى.. أكتب إليك هذا الخطاب و أتمنى أن يقع بين يديك ليمحو أي سوء فهم قد يعترض عقلك عن اختفائي فجأة.. أنا راحل! نعم أعلم أن الأمر مفاجيء لك و لن أكذبك فقد فاجأني أنا الآخر.. لكن عليّ الرحيل فلم يعد من داعٍ لبقائي هنا.. سأعود للقاهرة حيث نشأت.. أتمنى لك التوفيق بكل خطوة تقوم بها، فقد كنت نعم الصديق لي قبل أن تكون رب عملي.. أبلِغ تحياتي

لوالدك فقد كان نعم الأب لي.. أتمنى أن يُكتب لنا اللقاء مرة أخرى و في ظروف أفضل من هذه.. إلى ذلك الحين أقول لك يا صديقي "إلى اللقاء".

صديقك يوسف..

أغلق المظروف و وضعه على المنضدة ثم وضع بجانبه مبلغاً من المال كتب على ورقة بجواره أن يُسلم لصاحب المنزل. ثم حمل حقيبته على ظهره و ألقى على الغرفة النظرة الأخيرة قبل أن يغلق بابها و يخرج من المنزل بلا عودة. و عرج في طريقه على المقابر، وضع حقيبته أرضاً و جلس جوار قبرها، ألقى عليها السلام ثم قرأ على روحها فاتحة الكتاب قبل أن يودعها قائلاً:

- أنا راحلٌ دادة.. لم يعد هناك حاجة للبقاء ببلد لن تظلَّكِ سماؤه.. شكراً لكل ما تكبدته لأجلي و لأجل مسامحتي.. شكراً لكل لحظة كنتِ بها جزءاً من حياتي.. لن أنساكِ لحظة واحدة و سأدعو الله لكِ دائماً.. الوداع.. دادة سعاد.

ثم مسح بيده على قبرها و نهض حاملاً حقيبته و غادر البلدة بهدوء مثلما أتاها أول مرة..

عاد للقاهرة. فاتَّجه رأساً لعم محسن يقص عليه ما فاته من القصة باكياً بالنهاية رحيلها الذي لم يُعِّد نفسه له.

- سأذهب إلى أمي.. سأنبأها بموت دادة سعاد و سأسألها عمَّا يُؤرقني.

كان هذا أخر ما تفوه به يوسف لعم محسن قبل أن يغادر منزله مستقلاً سيارة أجرة أوصلته لفيلا جده.. نعم هناك الكثير ليسأل عنه يتجلى فوق هذا الكثير سؤال واحد: كيف علمت بمكانه؟ أكانت تراقبه؟!

وصل الفيلا و لحسن حظه كان جده بالخارج و لم يكُن بها ذلك الوقت إلا والدته جالسة تقرأ كتاباً بالحديقة..

- يوسف! متى أتيت؟

سألته متطلعة إليه بدهشة عندما فاجأها بوقوفه أمامها.. و لم تلبث أن اختفت أمارات الدهشة على وجهها ليحل محلها القلق:

- يوسف ماذا بك! أنت شاحب للغاية.. أرجوك ماذا هناك؟

وقفت تجذبه جوارها على الأريكة. كان منهك؟. نعم. و كانت جذبتها إشارة لقلبه المثقل بالأحزان فارتمى داخل حضنها يبكي و هو يخبرها بوفاة الأم الثانية. تأثرت لبكائه فبكت هي الأخرى مربتة على كتفيه.

- آسفة يوسف لأنك تمر بكل ذلك.. آسفة حبيبي.

و ازداد بكاؤه لا يعلم من عليه التأسف للآخر! حضر جده و رآه على حالته المزرية تلك فسأل قلقاً عما يكون قد أصابه، أخبرته لميس عما حدث وهو لا يزال بين ذراعيها.. انتزعه جده برفق مربتاً على خديه:

- أفق يا يوسف! لا تفعل بنفسك ذلك.. يوسف.

ثم احتضنه هو الآخر مربتاً. لم يكُن يوسف حينذاك يشعر بما يجري من حوله فلم يشعر بيد جده التي قادته لإجدى الغرف، و لم يشعر وهو يضعه داخل الفراش و يُحكم الغطاء عليه. كان يشعر بالإرهاق و الإنهاك فغفا على الفور و لم يفق إلا بعدها بساعات متطلعاً للغرفة من حوله فوجد والدته جالسة على المقعد المجاور له.

- استيقظت حبيبي!

- نعم أمي.

كان صوته لازال به اختناق الدموع التي ذرفها. نظرت إليه والدته بأسى قائلة:

- لقد ضيعت الكثير بابتعادي عنكم.. أنا لم أجرب إحساس البقاء بجانب أحدكما من قبل.. ليتني جربت الأمر لمرة.. حينها ربما لم أكُن لأقوى على الابتعاد لحظة.. و لكن فات أوان التمني!

ثم أكملت و هي تذرف العبرات:

- إنها أنا السبب بكل ما حدث! ليتني كنت أماً حقيقية لكما و لو لمرة!

أسند يوسف ظهره على الوسادة متطلعاً إليها. لقد تغيرَت كثيراً! أراد أن يخفف من وطأة ألمها فقال:

- جميعنا مخطئون أمي.. ليس أحدنا بريء و لو حاول كل منا إلقاء اللوم على الآخر.

تمتمت بخفوت: نعم.

- أمي هناك ما أريد أن أسألكِ عنه.

- ما هو يوسف؟

- دادة سعاد أخبرتني قبل وفاتها أنكِ زرتها و أخبرتها أشياء عن عملي و الصعوبات التي واجهتها؟ كيف عرفتِ كل ذلك؟

أبعدت عينيها قائلة:

- لقد علمت مصادفة.

- كيف ذلك؟

تنهدت بقوة قائلة:

- سأخبرك.. فلم يعد من داعٍ لإخفاء الأمر أطول.. فبعد مرور أشهر على وفاة والدك و أختك و شعوري بالظلم الذي وقع عليّ جراء إفلاس والدك و اضطراري لمواجهة الحياة خالية الوِفاض، أحسست بالظلم فأردت كنوع من التمرد كما ظننت وقتها أن أعود لحياتي السابقة المفعمة بالسهرات و الحفلات. فاتجهت لجدك اعتمد على ماله مجدداً و للحق لم يمنع عني أي شيء سواء كان المال أو الإذن لأفعل ما أشاء. ربما كان ذلك للتخفيف عني

بعد ما حدث.. و عدت لتسوقي و سهراتي بحفلات صديقاتي.. بشكل عام عدت لحياتي وقتما كان كل شيء بخير.. و ذات ليلة عُدت متأخرة بعد انتصاف الليل بساعات فرأيت جدك مُشعلاً الأضواء و جالساً ببهو الفيلا ينتظرني.. ألقيت عليه تحية المساء و خطوت تجاه السلم للذهاب لغرفتي. فأوقفني صوته الهادر قائلاً:

- أين كنتِ لميس؟

- كنت بحفلة لإحدى صديقاتي أبي.

- هل محوتِ زوجك و ابنتك من ذاكرتكِ إذن.. أخبريني فأنا أريد أن أعلم مع من أحيا.

قالها بحدة.. و كانت تلك أول مرة يُظهر غضبه على تصرفاتي و كأنها كانت الشرارة التي انتظرتها للانفجار. كانت نفسي مثقلة من والدك و منك و من الحياة بأكملها كونها أدارت ظهرها لي فلم أشعر بنفسي و أنا أصرخ مقابله:

- لما سأتذكرهم.. لِما تطلب مني ذلك أبي.. هل تذكَّرني أيهما؟ زوجي أخفى عني كل شيء و تركني في النهاية مفلسة لولا وجودك لكنت مددت يدي أشحذ طعامي.. و ابني إلى أين ذهب لقد تخلى عني هو الآخر ليبحث عن امرأة لا تمت له بصلة مُلقياً بمن أنجبته خلف ظهره.. ماذا تريد مني

أبي؟ أتريد مني أن أجلس و أبكيهم.. إذا كنت سأبكي أحداً فسأبكي ملك.. لكنها هي الأخرى لم تكن تنظر إليّ إلا و الاشمئزاز بادٍ على وجهها مما فعلت بصديقتها المزعومة.

و لم أصمت إلا و أنا أستشعر صفعته على خدي.

- أنت تصفعني أبي! إنك لم تفعلها من قبل!

- ليتني فعلتها.. لما كنت أوصلتك لهذه الأنانية.. أتعلمين ماذا يعمل ابنك لكسب لقمة عيشه؟!

ثم تنهد بحدة مكملاً:

- إنه يعمل حمَّالاَ.. حفيدي أنا يعمل حمَّالاً لأنه يريد أن يصبح أمام نفسه رجلاً.. رفض أموالي و دعمي و ذهب ليشق طريقه بنفسه.

شعرتُ حينها بالعجز.. بالكاد كانت تحملني قدماي و أنا أستند على جدار السلم و أسأله بصوت متقطع:

- كيف.. كيف علمت ذلك.. هل هاتفك؟

- كنت قلقاً عليه فأرسلت خلفه أحد رجالي.. و أخبرني بما يجري معه.. أتعلمين أنه نام ليلتين في العراء لأن ليس لديه غرفة تأويه.. ابنكِ الذي تنقمين عليه كاد يموت و أنتِ هنا لا يشغل بالكِ إلا الملابس والسهرات.. أنا أشعر بالعار لأنكِ ابنتي.. لو لم تمت والدتك و أنت بعمر

صغير لما وصلتِ لهذا الحد فهي لم تكن يوماً مثلك، و لم تكُن لتدعكِ تصبحين هكذا.. لقد كانت امرأة واعية و ذات مسئولية.. أنا السبب بما انتهيتِ إليه من أنانية.. لقد أهملتكِ حتى وصلتِ لهذه المرحلة.. اعتقدت أنني عندما ألبي لكِ كل رغباتك ستكونين بخير.. لكنني كنت مخطئاً.. لقد أفسدتكِ لميس.. أنا السبب بما حدث لكِ.. ليتكِ لم تكوني ابنتي!

ثم دفعني و صعد لغرفته. جلست حيث أنا أعيد كلماته على عقلي. آلمني ما عرفته عنك. يوسف الذي لم أتخيله يفعل شيئاً غير السكر و اللهو يعمل! و ما طبيعة ذلك العمل؟ حمَّال! كاد قلبي يتوقف بتلك الليلة. كرهت نفسي و شعرت بالاشمئزاز يغلفني. ألقيت حقيبتي أرضاً وأجهشت بالبكاء. البكاء الذي تحجَّر داخل مقلتاي منذ وفاة أختك و لم يخرج لغضبي على والدك انهمر كله دفعة واحدة. و عاهدت نفسي منذ تلك اللحظة على التغيير فكنت كما رأيتني عندما أتيت لزيارتي. و لأول مرة أرى نظرة مُحبة من عيني جدك تجاهي. لو كان يستطيع لكان تبرأ مني لأجلك. إنه يحبك كثيراً و كاد يبكي و هو يخبرني عنك بتلك الليلة.

تمتم لنفسه:

- إذن كان جدي يعلم بكل شيء.

- نعم.

كانت تلك إجابة جده و هو يلج الغرفة مُكملاً:

- يومها كنت أتمزق ألماً عليك لكني أيضاً شعرت بالفخر أنك حفيدي. اعذراني فقد استمعت لحديثكما عندما هممت بطرق الباب.. كيف حالك الآن؟

- أفضل جدي الحمد لله.

استأذنت والدته لتحضر له الطعام:

- سأحضر لك الطعام حبيبي.. لابد أنك جائع.

- أنا أيضاً جائع لميس.. اطلبي منهم تحضير المائدة لنأكل سوياً.. حسناً يا يوسف؟

- حسناً جدي.

تجمعوا حول الطعام بصمت.. وقطع الجد ذلك الصمت بقوله:

- هل قررت خطوتك التالية؟.

- أبي أهذا أوان الحديث!

نظرت له ابنته بلوم.

ابتسم يوسف مجيباً:

- هوني على نفسك أمي.. على كلٍ لم أفكر بهذا الأمر حتى الآن.

تمتم جده بخفوت:

- هذا أفضل!

ثم رفع صوته قائلاً: عليك البقاء هنا حتى تستعيد صحتك على الأقل.

- لكن...

- يوسف! هذا أمر و أنا لن أقبل مناقشته بأي حال.

ثم عاد الجد لتناول طعامه فتبعاه صامتين و إن لم يخف عليه سعادة أمه البادية بحذر على وجهها.

و بعد انتهاء العشاء استأذن يوسف لمهاتفة عم محسن. هاتفه و أخبره أن جده أصر على بقائه و لا يعلم متى يمكنه العودة. بارك عم محسن بقاءه وطلب منه المكوث مع والدته قدر المستطاع. شكره يوسف ثم أنهى المكالمة.

مكث يوسف في الفيلا إسبوعاً قبل أن يسمح له جده بالخروج. وبأول خروجة له اتَّجه لمنزل عم محسن، اطمأن على صحته و بقى معه اليوم بأكمله قبل أن يعود بالمساء لفيلا جده تشيعه عبارة عم محسن:

- أنا سعيد من أجلك.. لقد بدأت تستعيد عافيتك مجدداً.

و خلال الإسبوع التالي و بينما كان جالساً بالحديقة اتَّخذت والدته مقعداً بجواره. شعر بتلعثمها فعلم أنها تريد أن تخبره شيئاً و هذا الشيء

ليس بهين نظراً للتعبيرات المترددة على وجهها. أراد أن يقطع عليها نصف الطريق فقال:

- ماذا هناك أمي؟

- يوسف.. أتذكر نوران ابنة السيد فوزي.. صديق والدك -رحمه الله-.

- نعم أتذكرها.. ما بها.

- لقد قابلتها منذ أيام كانت تتسوق مع والدتها.. لقد أصبحت شابة رائعة.. عندما نظرت إليها شعرت أني أتطلع لملك.

ثم تهدجت ملامح وجهها.

- نعم أتذكرها.. لقد كانت على الدوام فتاة هادئة ملتزمة بعكس صديقاتها.

- إذن أنت تتذكرها.

و استرخت ملامحها ثم اعتلت وجهها ابتسامة و هي تخبره:

- ما رأيك إذا طلبتها من أجلك؟

- من أجلي! لا أفهم.

- أريدها أن زوجة لك.

انقبضت ملامحه و خاطب والدته بنبرة مقتضبة:

- أنا لن أتزوج أمي.. على الأقل لهذه الفترة.

- لماذا؟ أنا أريد رؤية أطفالك.

- قلت لن أتزوج.

ثم غادر عائداً لغرفته. و كما توقع فبمجرد وصول جده بكت أمامه تصرفات ابنها العاق. و بقيت تسأله بيأس ماذا عساها تفعل بذلك الولد الذي ما يسبب لها إلا الألم شاكية:

- إنه لا يشعر بي أبي.

- كلٌ منكما لا يشعر بصاحبه! اهدأي لميس.. سأحاول التحدث معه و فهم وجهة نظره.

و في المساء بالطبع كان موضوعه محل النقاش على مائدة العشاء.

- لقد اشتكت والدتك إليّ سوء تصرفك يا يوسف.

- أنا لم أُسيء إليها جدي.. هي عرضت علي أمراً و أنا رفضته. و هكذا انتهى الأمر.

- ألا تعجبك الفتاة التي اختارتها لك؟

- الأمر ليس هكذا! أنا إن فكرت بالزواج فليس هناك أفضل منها بنظري.. لكني لا أفكر بالزواج الآن.

- لماذا؟! إن كان بسبب المال لا تقلق.. أنا ليس لديّ إلا أنت ووالدتك.. سأتكفل بكل ما يلزم زفافك.

- أعلم جدي و أنا شاكرٌ لك ذلك.. لكنني ببساطة لا أتخيل نفسي متزوجاً الآن.. أنا لم أنهى جامعتي بعد و ليس لدي مال أو وظيفة أطعم نفسي و إياها منها.. كما أني نفسياً غير مستعد للزواج قبل سنوات.. فأرجوك جدي لا تضغط عليّ فأنت دوماً الوحيد الذي يتفهمني!

شهقت والدته بعنف:

- سنوات يا يوسف!

- نعم أمي.. سنوات.

فسأله جده محاولاً فهم وجهة نظره:

- إذن ما هي خطوتك التالية؟

- سأسافر للخارج.

و كأنه ألقى دلو ماء بارد على رأسيهما فقالا في صوت واحد:

- تسافر؟!

لم تنثنِ عزيمته و هو يكمل:

- نعم سأسافر لأي دولة لا يهمني الأمر.. ما يهمني هو أن أتمكن من استعادة و لو جزء من روحي قبل أن أعود مرة أخرى.

فسأله جده:

- و جامعتك؟

- سأكملها و أنا بالخارج.. سأدرس وحدي و أحضر وقت الإمتحان.

نظرت له والدته بعينين تغرغران بالدموع:

- لقد خططت لكل شيء إذن!

جثا على ركبتيه أمامها و أمسك يدها برفق قائلاً:

- ثلاث سنوات.. فقط أمي امنحيني ثلاث سنوات و سأكون بعدها رهن إشارتك.

- و لِما ثلاث سنوات!

- أشعر أنها مدة كافية للعثور على نفسي و البدء من جديد.

- الفتاة لن تنتظرك.

- إذن سأطلب منكِ حينها البحث لي بنفسك عن أخرى و أعدك وقتها أني سأنفذ مشيئتك. و أسقط في يد الوالدة و الجد أمام عزيمته الصلبة. و لم يمضِ شهران إلا و قد سافر لإحدى الدول العربية مودِّعاً الجميع مُتمنياً رؤيتهم من جديد. و تم الأمر كما خطط له. أكمل عامه الأخير و حصل على شهادته فأصبح محاسباً. تنقل خلال تلك الثلاث سنوات بين الوظائف المختلفة: عامل تقديم بمطعم، أو موظف استقبال،

وحتى عامل تنظيف. و عندما استلم شهادته قضى العامين التاليين محاسباً بإحدى الشركات. و لم ينس في خضم ذلك من ينتظرونه هنا. فكان يهاتف والدته و جده و عم محسن بشكل منتظم يطمئن عليهم و يُطمئنهم على نفسه و تنتهي المخابرة. صادق خلال إقامته الكثير ممن قدَّموا له يد العون وهونوا عليه غربته عن أحبائه. و بإنتهاء الثلاث سنوات كان يستقل الطائرة عائداً لأرض الوطن. استقبلته والدته بأعين دامعة و عانقه جده بحرارة. وأخذت والدته على عاتقها سؤاله عن سنواته المنصرمة و كان يجيبها بابتسامة أصبحت جزءاً من وجهه.. سألته:

- هل أصبحت أفضل الآن؟

- بلى أمي.. كثيراً.. لم أعتقد أني قد أصل يوماً لهذا السلام مع نفسي.. نعم لازال عذاب ضميري قائماً و تراودني الكوابيس المفزعة بين الحين والآخر.. لكني الحمد لله بت أفضل حالاً.

- الحمد لله حبيبي.. إذن عليك تنفيذ وعدك لي.

نظر إليها متسائلاً بحيرة:

- أي وعد؟!

- الزواج.. ألم تخبرني...

- بلى أتذكر الآن.

ابتسم لها و أكمل:

- افعلي ما ترينه مناسباً فأنا رهن إشارتك كما وعدتك.

احتضنته قائلة و هي تغمز بإحدى عينيها:

- نوران لم تتزوج بعد.

قهقه قائلاً:

- أنتِ لستِ سهلة أبداً.. حسناً.. اجعلي جدي يحدد موعداً مع والدها.

ابتسمت قائلة و هي تشد على يديه:

- أنا لم أسمع ضحكتك هذه منذ سنوات طويلة يا يوسف.

ربت على يدها قائلاً:

- أتمنى ألا ترحل مرة أخرى أمي.

- إن شاء الله حبيبي.

و ذهب في اليوم التالي للِقاء عم محسن. رأى السنوات تنقضّ على عمره. لم يعد يتحرك كما كان قبل سفره. وجده ملازماً الفراش ترعاه ابنته وأطفالها الذين انتقلوا للعيش معه مؤخراً نظراً لصلابة رأسه و تمسكه بالموت حيث رحلت زوجته. أخبره يوسف أنه مُقدِم على خطوة الزواج ففرِحَ و دعا له بالبركة و تيسير الحال.

حدد جده موعداً مع والد الفتاة و ذهبوا لرؤيتها. أخبرها أنه لم يعد يملك إلا المال الذي يجنيه من عمله. لم يكذب عليها و يخبرها أنه سيوفر لها ذات الحياة التي تعيشها بكنف والدها، لكنه سيحاول قدر المستطاع توفير كل شيء لها.. ابتسمت قائلة:

- أنا لم يكُن المال أحد تطلعاتي يوماً.. يكفيني أن تهتم لأمري وتعاملني معاملة حسنة.

- إن شاء الله أعدكِ أن أتق الله فيكِ.

و تمت الخطبة و من بعدها الزفاف. و سارت أمورهما يسيرة كما خططا لها. ابتاع لها شقة بالنقود التي وفَّرها خلال سفره لتكون منبع أمانهما واستقرارهما. و برغم امتعاض والدها من تلك الشقة التي لا تناسب مستوى حياة ابنته و محاولات جده الكثيرة لإعطائه المال إلا أنه رفض و هي لم تتخل عنه أو تُرهقه بما يفوق طاقته بل كانت راضية بكل ما يحضره لها. وتم الزفاف و بليلة الدخلة بعد أن صليا ركعتين يبدآ بهما حياتهما الجديدة جلست أمامه قائلة:

- يوسف.. هناك ما أود الاعتراف لك به.

انقبض صدره قائلاً بقلق:

- ماذا هناك نوران؟

شدَّت على يده قائلة:

- لا تقلق إنه ليس بالشيء الكبير. لكني أحب أن أطلعك عليه.

ثم سحبت نفساً طويلاً و أكملت ناظرة داخل عينيه:

- أنا أعلم ما حدث معك بالماضي.. بداية من شمس حتى وفاة دادة سعاد.

الفصل الثالث عشر

- تعلمين! كيف.. كيف ذلك؟ و ما الذي تعرفينه.. تحديداً؟

انتزع يده من بين يديها ببطء و تطلع إليها بعينين زائغتين و وجه غادرته الدماء فبات شاحباً شحوب الأموات. ترددت قليلاً قبل أن تستأنف:

- في الواقع كل شيء.. و لا داعي لقصّ الأمر حتى لا نسترجع ذكريات مؤلمة.. كل ما أريد إخبارك به أني عرفت بتلك الأمور متفرقة.. بعضها من أبي و أخرى من صديقاتي أما الجزء المتعلِّق بوفاة دادة سعاد وسعيك لتتوسلها لمسامحتك فقد أخبرتني به والدتك عندما ذلَّ لساني أمامها يوماً فأدركت أني أعرف ما حدث معك و أعرف عن وفاة والدك و أختك.. أخبرتني يومها محاولةً الدفاع عنك أمامي شارحة ما عانيته لتتوب و تحاول قدر المستطاع تعويض المرأة عما اقترفت بحقها و حق ابنتها.

- و ماذا كانت.. إجابتكِ حينها؟

- أظن أن إجابتي واضحة فها أنا أجلس بجانبك على سجادة صلاة واحدة.. لن أكذبك و أقول أن الأمر مرَّ هيناً عليّ فقد بكيت يومها و أنا

أستمع لما اضطررت لمعايشته لتبدأ من جديد.. و حينها أخبرت والدتك وسط دموعي أني لن أقبل بغيرك زوجاً لي..

ثم ابتسمت و أكملت بخجل:

- في الواقع لقد رفضت الكثيرين مواجهة سخط والداي وحدي في انتظار عودتك.

شعر أن قلبه يرقص فرحاً. و أحسَّ أن الله منَّ عليه بالكثير من السعادة بعد سنوات شقائه و ألمه، فقال بمرح:

- حقاً! لم أكن أعلم.

أخفضت عينيها تبتسم بخجل و أكملت:

- أنا واثقة أنك تبت يا يوسف.. و أعدُك أني سأحاول قدر المستطاع إسعادك.. فأنا حقاً أفتخر بك زوجاً لي.

اعترافها و كلماتها ربتتا على قلبه و منحتاه أملاً فوق أمله بالحياة.. هي عرفت بكل حياته السابقة: ذنوبه و ذلاته و ضعفه. كل شيء و انتظرته راضية حتى عاد! فأي مكافأة تلك!

- أريد عندما يتوفر معي المال أن أبني ملجأ للأيتام يكون باسم شمس. أريد أن أجعله صدقة جارية على روحيهما.. فهل ذلك سيضايقك؟

- لما سأتضايق! ثِق أني سأكون دوماً عونك و دعمك.. أنا لن أوقفك لحظة عما ترغب.. طبعاً إلا لو كان سيئاً..

- أعدُكِ نوران أني لن أعود للسيء مرة أخرى.. أعدكِ بحياتي..

صدّقته فاطمأنت إليه و اطمأن إليه و آلف الله بين روحيهما فعاشا بسعادة. لم تعد لذِكر الماضي منذ تلك الليلة و هو قدَّر لها ذلك فازداد حباً وإكراماً لها. رزقهم الله بفتاتين و فتى تعاهدا على تربيتهم بأفضل الطرق مانحين إياهم -و بخاصة يوسف- الحب الذي لطالما حُرِمَا منه. و إلى هنا تنتهي قصة يوسف. ما رأيك؟ أليس الله تواباً رحيماً رُغم ما نقترفه بحقه وحق أنفسنا ؟!

جفف محمد دموعه قائلاً:

- بلى.. يُسعدني أن حياته آلت للسعادة و الراحة في النهاية.. مثلما يؤلمني ما واجهت سعاد و ابنتها.. لكن يبدو من سردك لكل تفاصيل القصة أنك تعرف صاحبها جيداً.. حتى أنك تبدو مقرباً منه للدرجة التي تُخوله بإخبارك كل ذلك دون مواربة..

- في الواقع نعم.. نحن مُقربان لدرجة لا يُمكِنُك تخيلها.

- إذن هل هو على قيد الحياة؟

- نعم.

- أين يعيش؟ ألا يمكنك أن تجعلني أقابله.. ربما لو رأيته ازداد تشبثي بالحياة.

ابتسم الشيخ مجيباً:

- اسأل عنه مديرك بالعمل غداً و سيخبرك بمكانه فهو أيضاً على معرفة تامة به.. و بمناسبة التحدث عن العمل...

نظر لساعة يده و أكمل متفاجئاً:

- يا إلهي.. لقد تجاوزت الساعة الواحدة! أخشى أنك ستتأخر عن عملِكَ غداً.

- لا تقلق.. أنا بالكاد كنت أنام بسنواتي الغابرة.. لن أتأخر عن موعد العمل.

- إذن حان الوقت لقول تصبح على خير.. أراك بالغد إن شاء الله.

تركني و غادر الغرفة مُغلقاً بابها خلفه. بعد ذهابه توضأت و صليت ركعتين دعوت الله في سجودهما أن يمُنّ عليّ و يقبل توبتي و يصلح حياتي كما أصلحها ليوسف من قبل ثم اتَّجهت للفراش. استيقظت في الصباح التالي و نظرت لساعة الهاتف فوجدتها السادسة. صليت ثم خرجت من المنزل قاصداً العمل. و لم يكُن المطعم قد فتح أبوابه بعد. انتظرت بجانبه حتى حضر الأستاذ صالح، ألقى عليّ السلام مادحاً استعدادي المبكر

للعمل فشكرته و أنا أتبعه للداخل. أرشدني للعمل و كنت كلما واجهتني مشكلة أسأله فيتفضل بحلها لي دون استياء. و عندما شعرت أن زحمة المطعم بدأت تخف وطأتُها طرأت تذكَّرت يوسف و قول الشيخ بأن أسأله. توجهت إليه و على محياي ابتسامة:

- أستاذ صالح كنت أريد أن أسألك عن رجل.. أخبرني الشيخ بالأمس أنك تعرفه جيداً.

- و من ذلك؟

- إنه يدعى يوسف.. لا أتذكَّر الآن اسم والده، لكن الشيخ أخبرني أنه صديقك و أن لديه ابنتان و ولد.

- يوسف! تقصد يوسف هذا!

ثم أشار بسبابته لمدخل المطعم. تتبعت إصبعه متطلعاً للرجل الذي يحتل بابه بابتسامة. أحسست و كأن روحي تُسلب منيّ. هربت الدماء من جسدي و أنا أتمتم:

- يا إلهي! أكان أنت؟!

اتسعت ابتسامته مجيباً و هو يقترب منَّا:

- نعم يا محمد إنه أنا.. هل أفزعتُكَ المفاجأة لهذه الدرجة؟!

ثم التفت بوجهه عني يُحيي صديقه:

- كيف حالك يا صالح و كيف حال محمد معك؟

- إنه يعمل بإتقان.. أتمنى أني لم أرهقه بالعمل.. ما رأيك يا محمد؟ محمد!

لم أكن أستمع لحديثهما فقد كنت فقط أتطلع بذهول لابتسامة الشيخ أمامي.. و أفكر: كيف ذلك؟ هل كان هو يوسف ذاك طوال الوقت! يا إلهي هل كان من يحدثني عنه طيلة الأمس! كيف و أنا لا أكاد أجد به شائبة.. كيف مرَّ بكل ذلك.

- استأذنك يا صالح سأتحدث مع محمد قليلاً.

ثم جذب ذراعي و خرج بي من المطعم. سألني و هو يقف أمامي:

- لما أنت مندهش هكذا! أنت لا تستطيع رؤية وجهك.. تبدو كمن رأى شبحاً.. لما أنت متفاجيء لهذه الدرجة؟!

- أنت.. أنت تبدو و كأنك تعبد الله منذ ولادتك.. كيف.. كيف مررت بكل ذلك.. أنا لا أستطيع فقط لمجرد التفكير تصديق أنك كنت تشرب الخمر.. أنك أنت و شمس.. لا.. لا أستطيع.

- ليس كل ما نرى هو حقيقة الأمور يا محمد.. تذكَّر ذلك دائماً.. نعم أنا مررت بكل ما قصصته عليك.. لم أخفيك شيئاً و لم أخجل و أنا أخبرك

عن ذلاتي.. ليس إشهاراً بذنوبي أو افتخاراً أني ارتكبت تلك الفواحش يوماً فأنا أمقتهم و أبغض الحديث عن سنوات مراهقتي و شبابي إلا للضرورة القصوى.. لكنني عندما نظرت إليك و أنت تقف مرتجفاً متردداً على باب المسجد لم أر إلا نفسي القديمة تقف خائفة مترددة أمامي.. بذلك الوقت كانت يد عم محسن موجودة لدعمي و حمايتي.. رجلٌ واحد حماني و آواني وقدَّم لي كل شيء.. أردت أن أكون تلك اليد التي تمتد لتربت عليك.. أردتك ألا تبقى سجيناً لعذابك و حزنك.. و أردت البرّ بذلك القسم الذي أقسمته على نفسي ذلك اليوم أنه إذا وجدت شبيهي فأني سأكون عم محسن له.. أتمنى ألا تراودك الظنون بشأني.. و إذا بتَّ تكرهني و أردت الذهاب فلك ما تشاء...

عانقته و أنا أبكي. حمدت الله بداخلي أن أرسله لي. أرسل لي من يفهمني و يربت على قلبي. شعرت بالفخر به و بالأمل بنفسي و أنا أنظر لحياتي القادمة فأجدني أحيا بهذا السلام الذي يطل من عينيه.. و قطعت وعداً أنا الآخر على نفسي بتلك اللحظة أني سأكمل عهده.. سأكون أنا الآخر عم يوسف الذي كان ذات يوم عم محسن.

- شكراً.. شكراً لأنك أصبحت جزءاً من حياتي.

ربت على ظهري قائلاً:

- ألا تحتقرني؟!

نظرت إليه و الدهشة تعصف بي:

- لِما أحتقرك! أنا أرى نفسي بك.. أنا أتمنى أن أصبح مثلك.. سأعافر أنا الآخر لإصلاح حياتي.. لأجعل أبي يسامحني و لأرقق قلب أخي فيعترف بي أو حتى يتقبل وجودي بهذه الحياة.. شكراً لك.. شكراً جزيلاًلك.. وشكراً للقسم الذي قطعته على نفسك ذاك اليوم.

تركته و عدت لعملي تشيعني بسمته و يتصاعد الإصرار داخل روحي.. نعم كما وعدته سأعمل و سأجتهد، سأسعى خلف أبي حتى يسامحني و يتقبل وجودي.. و سأبقى خلف أخي و أختي حتى يعترفا بي من جديد. سأكون المثال الذي يتشرفان به أمام عائلتيهما و أنسبائهما.. سأكون ما فقدت يوماً عند السادسة عشر و سأصبح عم محسن و عم يوسف إذا أتاني يائس قانط كما كنت لسنوات.. سأتحدى الحياة و المجتمع.. نعم سأتألم و قد يتملكني اليأس خلال رحلتي لكني لن أستسلم و سأحقق ذات يوم أملي المنشود.

إنها ليست نهاية.. إنها البداية..